الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

قتيبة بن مسلم الباهلي

صلاح مهدي عماش



منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية

سلسلة الاعلام والمشهورين ١٩٧٨
(٦)

صالح مهدي عماش

قتيبة بن مسلم الباهلي

وحركات

جيش المشرق الشمالي فيما وراء النهر

المقـدمة

لم يكن الدافع لاخراج هذا الكتاب الى حيز الوجود ، هو مجرد تأليف كتاب عن تراثنا المجيد الذي نعتز به • بل ان أمورا كثيرة قد جلبت انتباهي ، وأرى البحث فيها جديرا بالعنـاية والتمحيص • وأهمها هو الغموض الذي يحيط بتاريخ الفتح العربي الاسلامي لآسيا الوسطى ، وعدم وضـوح الحركات العسكرية لجيش المشرق ، جيش قتيبة بن مسلم الباهلي ، علاوة على الاهمية البالغة للبحوث العسكرية التراثية ، وتذكير الامة العربية بسـيرة الاجداد ، ومواكب الامجاد ، ليلمس جيلنا مآثر وفعاليات جيـل النصر لامتنا المجيدة ، في وقت عز فيه النصير ، وتتكالب على أمتنا قوى عالمية ، في أوسع مؤامرة اجرامية عرفها التاريخ ، لتمزيق الامة العربية ، وتركيعها ، وزرع الكيانات العنصرية الاجنبية كالكيان الصهيوني وغيره •

نحن نعرف عن هذا القائد ، قتيبة بن مسلم ، انه بطل كبير ، وقد دخل حدود الصين فوصل الى مدينة كاشغر في القسم الغربي من الصين ، وفتح بلاد ما وراء النهر (جيحون) ، ولا شيء غـير ذلك •

ولهذا فأن ازالة هذا الغموض سيكون أمرا نحتاجه في هذه الظروف العصيبة ، التي تمر بها أمتنا العربية ، وتحتاجه معنويات جيوشنا العربية غير الموحدة ، وهي تقارع الاستعمار والعدوان الصهيوني على الارض العربية في فلسطين .

والامر الثاني الذي أثار الاهتمام ، هو ان أكثر القادة العرب العظام امثال خالد بن الوليد ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وسعد ابن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، وحسان بن النعمان ، وغيرهم ، كانوا قد تحركوا وقادوا القطعات العسكرية في مناطق عربية ، ذات طبيعة جغرافية ومناخية واحدة ، وبين السكان العرب .

أي انهم كانوا يتحركون في مناطق يعرفونها جيدا ، فهي بلادهم ، وهم بين الشعب العربي سواء في العراق أو الشام أو مصر وشمال افريقية ، ذلك الشعب الذي قدم لجيوشهم كل المساعدات الممكنة ، سواء بالتطوع في صفوف الجيش العربي الاسلامي ، أو تأمين مواد الاعاشة والامور الادارية أو المعلومات عن العدو ، أو حماية خطوط مواصلاته ، علاوة على سهولة التخاطب بلغة واحدة دونما حاجة الى المترجمين والاداريين في المناطق المحررة ، أو أجهزة أمن خاصة لمراقبة تحركات سكان المناطق المحررة هذه ، فلم تبرز أمامهم مشاكل سياسية وعسكرية وادارية معقدة كتلك المشاكل العظيمة التي برزت لاول مرة وواجهها قتيبة بن مسلم في اندفاعه في الاراضي الجبلية الوعرة والشعاب

والوديان المانعة في طاجكستان وازبكستان وافغانستان . وأخيرا عبر هضبة بامير في اندفاعه نحو الصين ، سيما وان تلك المواجهة استلزمت حلولا وابداعا وأساليب جديدة في القتـال والسياسة والادارة والتجهيز ، في الوقت الذي عز فيـه المعين والنصير ، وبعدت فيه المسافات واختلف المناخ كليا عما هو عليه في البلاد العربية ، بل واختلفت الطبيعة الجغرافية لبلاد ما وراء النهر عن طبيعة البلاد العربية .

والامر الثالث ، ان علاقة وثيقة توطدت ونمت بين العالم العربي وآسيا الوسطى عبر القرون ، فاشتدت الروابط بينهما ، فاعطيا للحضارة الانسانية روائع حضارية قل مثيلها ، فكم من مولود في بخارى وطاشقند وسمرقند نمى وترعرع ثم تتلمذ هناك واعطى جهده وعلمه وفلسفته في بغداد ودمشق والقاهرة والكوفة والبصرة امثـال البخاري والفـارابي وابن سـينا والبيروني والزمخشري والسمرقندي ... الخ .

وآسيا الوسطى الآن في الاتحاد السوفيتي تضم ما يقارب الاربعين مليونا من السكان ، وعلاقة العرب بالاتحاد السوفيتي ، وحركة التقدم في العالم ، تستوجب التنويه وبحث العلاقة الاولى التي ابتدأت في عهـد قتيبة بن مسلم وتتبع تصرفاته وحركاته والاماكن والاقوام التي احتك بها وساسـها فأدخلهـا في رباط الاخوة مع العرب .

ولا يسعني بعد الذي قدمت الا أن أزكي من الشكر أجزله وأبدي من الفضل أعظمه لوزارة الثقافة والفنون ومديرية الثقافة

العامة حيث كلفتني فشرفتني اذ أناطت بي بكتابها المرقم ١/٩٩٧٧ والمؤرخ في ١٠/٣/١٩٧٧ تأليف هذا الكتاب لاماطة اللثام وجلاء الغامض عن تراثنا العسكري اللامع وعن قائدنا البارع وطودنا الشامخ البطل قتيبة بن مسلم الباهلي وحركات جيشه (جيش المشرق الشمالي) في ما وراء النهر .

كما ان للاستاذ عبدالحميد العلوجي عليّ يدا وأفضالا كثيرة في تدقيق هذا الكتاب وتزويده اياي بما ذكره أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى سنة ٩٢٧م عن قتيبة بن مسلم وحروبه فاليه جزيل شكري وعظيم امتناني .

وأزكي كذلك الشكر الجزيل لكل من ساعد وبذل جهدا مشكورا في طبعه .

صالح مهدي عماش

الفصل الاول

قتيبة بن مسلم الباهلي

إنه أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحسين الباهلي •

ولد بالعراق عام ٤٩ هجرية الموافق ٦٦٩ ميلادية ، واستشهد عام ٩٦ هجرية الموافق ٧١٥ ميلادية وهو ابن ٤٥ عاما •

قائد فذ ، فاتح ، من مفاخر العرب ، واداري حازم ، تمرس بالادارة منذ نعومة اظفاره ، وقاد الجيش ، وتولى الولاية وهو في العشرينات من عمره •

حارب وهو ابن سبعة عشر ، ودام جهاده قرابة ثلاثين عاما • ولم يكن من عشيرة كبيرة ولا قرشيا ، ولكن الذي قدمه في سلم الدرجات رجاحة عقله ، وشدة بأسه ، واخلاصه لقضية العرب والاسلام ، وقابليته البدنية ، وفروسيته ، وجرأته على الاعداء ، ودرايته في الحرب والطعان •

تولى ولاية الري وهي منطقة طهران في شمال ايران حوالي عام ٨٠ هجرية (٦٩٨م) في عهد الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان • وتولى ولاية خراسان في آخر عهد عبدالملك[1] ، وطيلة مدة

---

(١) نقلا عن كتاب الفتوح لابي محمد أحمد بن اعثم الكوفي (٧ : ٢٠٨) قال فيه حنظلة بن عرارة التميمي :

اتيت خراسان ابن‌عمرو واهلها — حيارى ونار بينهم تتحرق
فاطفأتها والعدل منك سجية — وانت لعمري للسداد موفق
فمرنا ابا حفص بما شئت اننا — الى كل ما تهوى نحب ونسبق
فانت لنا راع ونحن رعية — وكفاك بالاحسان فينا تدفق
فلا تأخذنا يا قتيب بما مضى — من الجهل ان الحر يعفو ويرفق

حكم ابنه الخليفة الوليد بن عبدالملك . وكان انتخابه لهذا المنصب في ظروف صعبة للغاية ، تخللتها محنة كبيرة كانت تمر بها البلاد ، وخصوصا العراق وفارس بعد تمرد عبدالرحمن بن الاشعث ، وما جرته الفتنة على البلاد من دمار وخراب وفرقة وبلبلة ، لذلك لابد ان يكون على قدر كبير من الكفاية والاخلاص . والا لجرى تعيين أموي قائدا للجيوش الشرقية بدلا منه خوفاً من ان تتكرر ثورة ابن الاشعث .

فتح بلاد ما وراء النهر ، وهي الاقطار الكائنة شرق نهر جيحون المسمى الآن (آموداريا) وهي تتألف من أزبكستان الحالية ، وطاجكستان وقرغيزيا وقسم من قازغستان . كما فتح قسما من تركمانية في الشمال الغربي من جيحون (آموداريا) ، وغرب بحيرة اورال ، وبالذات منطقة خوارزم . وكذلك تقدم في أفغانستان ، ثم اندفع كالاعصار شرقا مجتازا الحدود الحالية بين الاتحاد السوفيتي والصين فدخل مدينة كاشغر الكائنة في التركستان الشرقية ضمن الصين .

وعندما كان في الصين أدركه نبأ وفاة الوليد بن عبدالملك وتنصيب سليمان بن عبدالملك خليفة . وكان قتيبة ممن لا يعتقد بأهلية سليمان لتولي القيادة ، وعلى هذه العقيدة كان قادة الجيوش الاخرى مثل موسى بن نصير ، وطارق بن زياد في شمال افريقيا والاندلس ، ومحمد بن القاسم الثقفي في الهند (باكستان الحالية) .

وقد اظهر التاريخ صحة آرائهم في هذا الرجل الذي ملأ الحقد قلبه ، فقضى على خيرة قواد الامة العربية ، تعذيبا وقتلا

لاسباب شخصية ، وهم القادة الذين ذكرتهم وعشرات مثلهم •
وكان قتيبة أجرأهم اذ نادى بخلعه وتهيأ لتنحيته بالقوة ، فزحف من كاشغر ، ولكن الدولة هيأت له من يغتاله في فرغانة ، فهاجمه وكيع بن حسان التميمي غفلة ، وهو في بيته ، وقطعوا حبال بيت الشعر الذي يسكنه فسقط على رأسه عمود البيت فقضى عليه •

وكان قبل استشهاده قد لاحظ الهيثم بن المنخل يحرض الناس عليه فانشد قتيبة بيت الشعر المشهور لملك الحيرة مالك بن فهيم :

أعلمه الرماية كل يوم ٍ   قلما اشتد ساعده رماني

فاهتز لمصرعه العرب ، والاقوام الاخرى التي ادخلها في الاسلام ، بل لقد رثاه الفرس وروى ابن زيني دحلان في كتابه الفتوحات الاسلامية (ج ١ ص ١٩٩) ما قاله احدهم (قتلتم قتيبة ، والله لو كان منا فمات ، لجعلناه في تابوت ، فكنا نستسقي به ونستفتح به) •

كما روى في نفس الكتاب (ص ٢٣١) ما قالته والدة أمير فرغانة عندما حضرت الى مقر القائد نصر بن سيار للتوقيع على اتفاق صلح ، بعد مرور عشرين سنة على مقتل قتيبة ، بعد ان قدموا لها القواد الذين حضروا المناسبة ، وكان بينهم الحجاج بن قتيبة بن مسلم ، الذي احبته وسألت عنه وقالت (يا معشر العرب •• قتيبة الذي ذلل لكم ما أرى وهذا ابنه تقعده دونك ، فحقه أن تجلسه أنت هذا المجلس ، وتجلس انت مجلسه ، وعقدت الصلح ورجعت) •

ومن أرق الرثـــاء العاطفي ما رثـــاه به الشاعر ابن جمانة الباهلي ومنه :

وان لنـــا قبرين قبـــرَ بَلَنْجَرَ
وقبراً بصـينِ سِنْتان يا لك من قبرِ
فذاك الذي في الصين عَمت فتوحه
وهـذا الذي يسقى بـه سبل القطرِ

وقبر بلنجر هو قبر سلمان بن ربيعة الباهلي فاتح أرمينية ، والذي استشهد في بلنجر بالقفقاس . وكان يسمى سلمان الخيل ، وكان قد شهد القادسية ، ثم عينه الخليفة عمر (ر) مفتشا لكتائب الخيالة ، لدرايته بالخيل ، وحسن تربيتهـا ، وأساليب تدريبها ، واستخدامها وقيادتها .

كما كان قد قيل في قتيبة شعر كثير كله مدح[1] واني لأرى الذم فيه مدحا . مثلا هجاه نهار بن توسعة لانه لم يبذر أموال الدولة والغنائم كما كان يفعل سلفه وخلفه واشد خصومه يزيد بن المهلب ، الذي حاسبه بعدئذ اعدل خلفاء الامويين ، وهو عمر بن عبدالعزيز ، فهرب يزيد ثم ثار وقتل في عهد يزيد بن عبدالملك .

---

(1) قال عنه كعب بن معدان الاشقري (الفتوح لابن اعثم ٢٤٢:٧) :

فما كان مذ كنا ولا كان قبلنـا ولا كائن كالبـاهلي ابن مسلم
اعم لاهل الارض بأسـا ونائلا واقسم فينـا مغنما بعد مغنم

وقصيدة اخرى مطلعها (ص ٢٤٤) :

الا ايهـا الباغي قتيبـة غيبة ابى الله الا ان يكـون مؤيدا

واخرى بعد فتح خوارزم (ص ٢٣٧) :

اني رايت ابـا حفص يزينـه ايامه ومسـاعي الناس تختلف



فوصف الشاعر قتيبة باليبوسة وجفاف الاصابع أي عديم العطاء :

كانت خراسان أرضاً اذ يزيدُ بها
فكل باب من الخيرات مفتوحُ
فاستبدلت قتباً جُعداً أنامله
كأنما وجهه بالخل منضوحُ

وقال عنه المختار بن كعب الجعفي بعد فتح سمرقند :

دوخ السغد بالقبائل حتى
ترك السغد بالعراء قعودا

والسغد هم من أتراك ما وراء النهر ، وسكان منطقة سمرقند ، التي هدم قتيبة حصونها وأسر حامية المدينة •

وقال كعب الاشقري بعد اقتحام مدينة الفيل في خوارزم جنوب بحيرة اورال :

اعطتك فيل بأيديها وحق لها
ورامها قبلك الفجفاجة الصلف

ويعني بالفجفاجة الصلف يزيد بن المهلب ، الذي لم يتمكن من فتحها ، والفجفاجة الصلف هو الذي يدعي ولا يفعل ، كالرعد بدون مطر •

وتربته (قبره) تسمى تربة قتيبة في (رباط سرهنك) أي رباط القائد في قرية كاخ (أي القصر) من قرى فرغانة (ص ٨٥ من كتاب تاريخ بخارى للنخشري) •

استشهد رضوان الله عليه سنة ٩٦ هجرية (أي عام ٧١٥ ميلادية) وكان عمره ٤٥ عاما وقيل ٤٧ عاما •

الفصل الثاني

مشاكل قتيبة بن مسلم

طول خط المواصلات

لم تبرز هذه المشكلة بشكل يؤثر على الحركات العسكرية ، طيلة اشتباك الجيوش العـــربية الاسلامية في الساحتين السورية والعراقية أو قبلهما في الجزيرة العربية . فقد كانت المدينة المنورة هي العاصمة ، ولا تبعد الفيالق المهاجمة عن الف وخمسمائة كيلومتر في اسوأ الاحوال عن مقر القائد العام للقوات المسلحة (الخليفة) ولكن الحالة تغيرت تماما عندما اندفعت قطعات جيش الشـــرق الذي قاده قتيبة بن مسلم الى ما وراء النهر (جيحون المسمى حاليا آموداريا) . فقد كانت العاصمة دمشق وفيها كان القائد العـــام للقوات المســـلحة والحكومة . وان كان ممـــا يسهل الحركات العسكرية وجود مقر جحفل جيش الشرق الذي يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي في الكوفة ، والذي كان مسؤولا عن ساحة الحرب الشرقية التي تضم جيش قتيبة فيما وراء النهـــر وجيش محمد بن القاسم في الهند (باكستان حاليا) وجيش الاحتياط بقيادة الحجاج نفسه في العراق .

وبين حدود الصين ودمشق حوالي أربعة آلاف كيلومتر ، وفي أحسن الاحوال اذا ما اعتبرنا ان القيادة العامة للجيوش كانت في

الكوفة بقيادة الحجاج بن يوسف ، فتكون المسافة بين حدود الصين والكوفة مقر جحفل الجيش أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر . وهي مسافة طويلة سببت مشاكل ادارية معقدة ، وأخرت مجرى الحركات العسكرية بسبب طول الوقت لايصال المعلومات. وهنا برزت عبقرية قائد الجيش في تنظيم بريده ، اذ تم وضع نقاط خيالة على مسافة تسمح باستغلال أقصى طاقة الخيال وحصانه ، كأن تكون واحدة في بغداد ، والثانية في بعقوبة والثالثة في جلولاء ... الخ ، ويجري تسليم الرسائل من نقطة خيالة الى أخرى . واذا حسبنا سرعة الخيال هيذبى وخببا وسيرا اعتياديا بمعدل ٣٠ كيلومتراً بالساعة ، أمكن ايصال الاوامر أو طلب الموافقات على الحركات في مدة لا تتجاوز عشرة أيام ، وان يجرى ذلك وفي تلك الظروف وقبل الف وثلثمائة عام ، لهو ترتيب عسكري رائع ومفخرة من مفاخر العرب العسكرية .

لقد تعجب مالك بن الريب لبعد خراسان عن العراق ، فما باله بالتقدم أكثر من الفي كيلومتر أخرى عبر جيحون ؟ ..

لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
فلله دري يوم اترك طائعا
بنيّ باعلى الرقمتين وماليا

وعن معركة الجسر على الفرات قال أبو محجن الثقفي وهو يستكثر طول المسافة بين الحجاز والفرات وكثرة الفيافي المجهولة :

فأنى تــرت نحــونا ام يوســف

ومن دون مسراها فيــاف مجــاهل

فما تراه سيقول لو كان في كاشغر داخل الصين .

وقبلهما قال عربي معروف وهو امرؤ القيس بعد ان بعدت به وبصاحبه المسافات في الاناضول ، وشطت به الديار ، فقــال لصاحبه الذي حنّ لموطنه ، والعرب أصحاب عاطفة وحنان وتلك مكرمة وصفة انسانية نبيلة :

بكى صــاحبي لما رأى الدرب دونه

وايقــن انــا لاحقــان بقيصــرا

فقلت لــه لا تبــك عينك انمــا

نحاول ملكــا أو نموت فنعــذرا

اختلاف الطبيعة الجغرافية لميدان القتال

آ - في الوقت الذي تحركت فيه الجيوش العربيـة في أراضي العراق وسورية ومصـر المشابهة لاراضي شبه الجـزيرة العربية ، واستخدمت الخيول العربية والجمال العربية التي سهلت حركاتها . وفي الوقت الذي كان الجنـدي العربي يألف كل شيء في العراق والشام ومصر ، اذ انها مشابهة تماما لما كان قد تعود عليه في الحجاز ونجد واليمن . نجد ان هـذه الطبيعة الطبوغرافية تختلف اختلافا تاما في بلاد ما وراء النهر (جيحون) ، حيث تنهض الهضاب الصخرية والجبال العالية الصعبة الوعرة بما تتخلله من حافات صخرية قاسية ، ووديان سحيقة تحدد خطوط الحركات تحديدا تاما ، وتضطر القطعات العسكرية الى اتباع أساليب حركات مخالفة تمـاما لاساليب الحركات في المناطق السـهلة المفتوحة والصحراوية .

ب - فالمناطق الجبلية كمـا هو معلوم تعرقل الحركات العسكرية وخصوصا في الشتاء ، نظرا لمـا تتراكم عليها من ثلوج في طاجكستان وازبكستان وشمال افغانستان .

ج - وفي المناطق الجبلية يصعب التقدم بالسرعة التي يسهل فيها ذلك في المناطق المفتوحة .

د - وفي المناطق الجبلية تقل عادة مواد التموين ووسائل الاعاشة التي يسهل الحصول عليها في السهول . وفي المناطق الجبلية

تسهل المباغتة وتكثر المفاجآت ويسهل وضع الكمائن لضرب القطعات العسكرية المتقدمة •

هـ - وفي المناطق الجبلية يسهل جدا احتلال المدافعين لمواضع دفاعية قوية بقوة قليلة لصد قوة هاجمة كبيرة • وفي المناطق الجبلية تكون القابلية البدنية لمن تعود على تلك المناطق اكثر من القابلية البدنية لابناء الصحراء اذا ما تقدم أبناء السهول والصحراء في المناطق الجبلية • وفي المناطق الجبلية يسهل جدا فقدان الاتجاه وخصوصا في الحروب الليلية ، الامر الذي يخلق مشكلة صعبة للقطعات المتقدمة •

و - وفي المناطق الجبلية لابد من اتباع اسلوب خاص بالحروب الجبلية سواء في التقدم أو الانسحاب أو التعسكر وما يتعلق بذلك من مراباة وكمائن ونوع المناورة العسكرية • كل هذه الامور واجهها قتيبة بن مسلم وضباط ركنه وقادة تشكيلاته وآمرو وحداته العسكرية وجنوده ، وهي أمور استجدت ولم يألفها الجيش العربي منذ تحركه من المدينة المنورة في اندفاعه نحو الشام والعراق •

وهنا يقف التاريخ بوقاره ليسجل باجلال لذلك القائد العسكري العبقري قتيبة بن مسلم مقدرته الفذة على استنباط الحلول العسكرية لكل هذه المعضلات العسكرية ومرونته البارعة ودهاءه العظيم وقدرته على التحايل لحل تلك المشاكل • بل انه يشكل أول مفخرة عسكرية عربية في ابتداع اساليب وتشكيل وحدات عسكرية جديدة قادرة على العمل في تلك الظروف الصعبة ،

كتشكيله لصنف الهندسة ، الذي سماه الفعلة ، لفتح الطرق الجبلية وازالة العوائق•علاوة على ما المحنا اليه من تنظيم المواصلات سابقا بينه وبين مقر جحفل الجيش في الكوفة أو المقر العام في دمشق عاصمة الخلافة يومئذ .

لقد قال عربي من قزوين يصف تقدم البراء بن عازب الى قزوين ، وقد تعجب من وعورة الارض علما بأنها أقل وعورة بكثير من جبال ما وراء النهر :

قد علم الديلم اذ تحارب   حين اتى في جيشه ابن عازب
بأن ظن المشركين كاذب   فكم قطعنا في دجى الغياهب
من جبل وعر ومن سباسب

وقال أحد الشعراء العرب عن راوند قرب أصبهان ، وقد عبر عن شعوره بالضيق لاختلاف طبيعة الارض ومناخها وهو يناجي قبري نديميه :

خليلي هبّا طال ما قد رقدتما   اجدكما ما تقضيان كراكما
ألم تعلما اني بقزوين مفرد   ومالي فيها من خليل سواكما
مقيما على قبريكما لست بارحا   طوال الليالي أو يجيب صداكما
سأبكيكما طول الحياة وما الذي   يرد على ذى لوعة ان بكاكما

اختلاف الطقس

اعتاد العرب شأنهم شأن كافة الشعوب على جو وطقس بلادهم ، وهو ـ كما معروف ـ حار صيفا ومعتدل ربيعا وخريفا ولا تهبط درجات الحرارة الى الصفر الا في القليل النادر • وهذا الجو هو الشائع الذي تنطبق عليه الحال في شبه الجزيرة العربية وشمال افريقيا • كما تندر حالة الاعاصير والعواصف •

وتتأقلم ـ حسب هذا الطقس ـ النباتات والحيوان أيضا علاوة على الانسان ، ويهمنا في هذا البحث الجندي العربي ، ووسائط الحرب التي أهمها الخيول العربية وحيوانات النقل كالبغال والابل ، فانها تعودت على جو البلاد العربية والمناطق التي جرى فيها القتال قبل عبور قتيبة نهر جيحون •

أما في بلاد ما وراء النهر فان الصيف مشابه لما هو الحال في البلاد العربية مع جفاف اكثر بسبب بعد تلك البلاد عن البحار ، ولكن تشتد البرودة شتاء اذ تهبط درجات الحرارة الى حوالي ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وتسقط الثلوج بكثرة فتغطي السهول والجبال، وتهب عواصف هوجاء فيذلك الشتاء القارس ،فيستحيل على العربي انجاز واجبات القتال دون تجهيزات خاصة تقيه شدة البرودة ، وكذلك هو الحال بالنسبة للحيوانات العربية •

ولا شك ان حالا كهذه تطلبت تجهيزات من الالبسة والاغطية والخيم ، وكميات كبيرة من المواد الغذائية والعلف نظرا

لبرودة الطقس . والزيادة في هذه التجهيزات تطلبت ولا شك زيادة في وسائط النقل ، الامر الذي أصبح معه الذيل الاداري والمناطق الادارية ومناطق الادامة أكبر من غيرها في السابق . وزيادة حجم المناطق الادارية والذيل الاداري المتنقل ، تطلب ولا شك زيادة في عدد جنود الحماية ، وهكذا نلاحظ ان اختلاف الطقس قد سبب ويسبب تعقد المشكلة الادارية التي تتطلب ولا شك تقديرا صائبا وقيادة حكيمة لحلها .

وثمة قضية اخرى خطيرة يثيرها اختلاف الطقس ، وهو تحكمه في سير الحركات العسكرية ، فالشتاء يحدد الحركات والتنقل ، بل لشدة البرد كان العرب ينسحبون من المناطق التي سبق ان فتحوها . ولا شك ان ذلك قد سبب اطالة مدة الحركات العسكرية في ما وراء النهر . فنستنتج من ذلك انه لولا اختلاف الطقس لكان قتيبة بن مسلم وجيش المشرق قادرا على اختصار المدة الزمنية في الوصول الى كاشغر في أقل من نصف المدة التي قضاها في الزحف وهي ١٣ عاما ، ولقلل ذلك من الجهود الكثيرة والمصاعب الجمة التي واجهتها الفيالق العربية عند اعادتها الكرة بعد كل شتاء . ويقدر ذلك ، ولا شك ، من شهد أو اطلع على ظروف الحركات العسكرية وصعوباتها شتاء في بلادنا ، فكيف بها في الاقاليم الباردة النائية مع طول خطوط المواصلات وصعوبة الاتصال ووعورة الارض وصعوباتها .

وفي وصف الطقس وحالة الجو القاسية كان البطل مالك بن الريب قد قال لسعيد بن عثمان الذي سبق قتيبة في عبور نهر جيحون وطالبه بالانسحاب لحلول الشتاء :

هبت شمال خريق اسقطت ورقا واصفر بالقاع بعد الخضرة الشيحُ
فارحل هديت ولا تجعل غنيمتنا ثلجا يصفقه بالترمذ الريحُ
ان الشتاء عدو ما نقاتله فاقفل هديت وثوب الدفء مطروح

وعورة الارض

لقد لاحظنا من وصف طبيعة الارض لبلاد ماوراء النهر ، انها تختلف اختلافا كبيرا عن طبيعة الارض في شبه الجزيرة العربية ، فليس في بلاد العرب تلك الجبال الشاهقة الموحشة ، والوديان السحيقة ، والاراضي الصخرية ذات الاخاديد المسننة ، والمضايق الملتوية التي تحدد الحركات . اذ كل ما اعتاد عليه العرب في شبه الجزيرة العربية هو جبال تهامة التي لم تجر فيها حركات عسكرية مهمة ، وكذلك جبال اليمن التي لم تر قتالا يستحق الذكر أو بمقياس كبير ، كما أنهما ليستا بذلك الارتفاع الشاهق الذي تعلو فيه جبال هندكوش وهضبة بامير وأقاليم الحدود الصينية السوفيتية .

ان الجبال الشاهقة في بلاد ما وراء النهر وخصوصا تلك الكائنة في طاجكستان والقسم الشرقي من ازبكستان وقرغيزيا والصين الغربية وشمال افغانستان ، قد أوجدت وضعا لم يألفه الجيش العربي جنودا وقادة[1] .

---

(١) قال الشاعر يصف انتصار قتيبة واخضاعه حصن براسكين الذي اعتصم فيه نيزك بالجبال الشاهقة في شمال افغانستان :

براسكين ومن قد حل ذروتها	حاز البلاد فأن شا جاد أو ظلما
منيعة لم يرمها قبله احد	تخالها كوكبا في الجو قد نجما
تخال نيرانها من بعد منظرها	بعض النجوم اذا ما ليلها عتما
لما اطاف بها ضاقت بساحتها	حتى اقروا له بالحكم فاحتكما
قد ذل نيزكها من بعد عزته	وجاءها عارفا بالذل مهتضما

(راجع : الفتوح لابن اعثم ٧:٢٢٥)

ولعل أهم تلك الصعوبات هي :

أ ـ انها تطلبت من جيش المشرق جهدا بدنيا فاق كثيرا جهود الجيوش العربية الاخرى التي قاتلت في العراق وسورية وشمال افريقيا .

ب ـ ان القطعات العسكرية لبلاد ما وراء النهر كانت مدربة على الحروب الجبلية وتتحرك في بلادها ويسهل عليها معرفة الاتجاهات ووضع الخطط العسكرية وتنفيذها بدقة .

جـ ـ ان الضغط الجوي في المناطق العالية شيء مختلف تماما عن الضغط الجوي في المناطق الواطئة التي يسكنها العرب ، وان انتقال العرب الى تلك المناطق وتحركهم عسكريا فيها اوجد صعوبات بدنية وصحية بحكم اختلاف الضغط الجوي ، وهذه من الحقائق التي يحسب لها العسكريون الحساب الآن عند القتال في المناطق المرتفعة .

د ـ ان وعورة الارض وتسلق الجبال العالية في طرق ملتوية يتطلب وقتا يعد باضعاف الوقت الذي تقضيه تلك الوحدات لو كانت لم تتسلق تلك الجبال .

هـ ـ ان وعورة الارض والجهد البدني الكبير المبذول والوقت الطويل المبذول في الحركات العسكرية بسبب وعورة الارض، يضعف المعنويات مالم يكن هناك ضبط عسكري صارم ، ولعل هذه الحال تفسر لنا بعض ظواهر الضبط الصارم والقسوة التي مارسها قتيبة تجاه قطعاته العسكرية وسكان المناطق المفتوحة .

و ـ ولعل من المفيد ابداء ملحوظة بهذا الصدد ، وهي ان وعورة الارض كانت من أهم الاسباب التي أطالت مدة الحركات العسكرية . فاذا كان المناخ وصعوباته قد اضاف ضعف المدة الزمنية فان وعورة الارض قد اضافت ضعفين أو اكثر . اريد ان اقول لو لم يكن الطقس بتلك القسوة ، والارض بتلك الوعورة لامكن لجيش المشرق ان ينشر بنوده على كاشغر في أقل من خمس سنوات بدلا من اثنتي عشرة سنة ، مع ان هذه الاثنتي عشرة سنة كانت قليلة جدا اذا ماقيست بحركات الجيوش العربية الاخرى في شمال افريقيا والاناضول واوربا من جهة اسبانيا .

ز ـ ان وعورة الارض قد تطلبت تعبئة خاصة ، واسلوب قتال جديد ، وهو الحرب في الاراضي الجبلية . وكونه من الاساليب الجديدة فلابد ان نفترض وجود الخطأ وتكراره وتطبيق مبادىء جديدة ، وترك الاساليب والمبادىء التي سبق تطبيقها . وكل هذه تسبب ضياع الوقت والجهد وخسائر لها تأثير على قوة الجيش القتالية .

ح ـ ان وعورة الارض قد ساعدت المدافعين ، لانهم أعرف ببلادهم ، وقد ألفوا هذه الصعوبات ، بل تطبعوا عليها بدنيا ، فقللت خسائرهم واطالت مدة صمودهم . وبعكسه فقد اوجدت للعرب صعوبات كبيرة في التنقل والقتال ، وسببت ضياع الوقت في الاستطلاع والتنقل والحركات ، وزادت من خسائرهم .

اختلاف اللغة والعادات

لقد سبق لمعظم القادة العرب أن ساحوا في البلاد العربية قبل الحركات العسكرية فالمثنى بن حارثة الشيباني عراقي وقاتل في العراق فهو يعرف العراق ولغته العربية وعادات السكان ، وخالد ابن الوليد قاتل في العراق والشام وهما قطران عربيان وكذلك في شبه الجزيرة العربية ، وعمرو بن العاص قاتل في شبه الجزيرة العربية والشام ومصر التي سبق ان زارها علاوة على انها عربية . وكان العرب يسكنونها قبل تحريرها من الروم ... الخ ، فقد كانت القطعات العسكرية تتحرك في مناطق عربية ويسهل الحصول على المعلومات عن طريق الانصار والموالين والوكلاء وبسبب من معرفتهم لعادات القبائل وعادات الروم والفرس بمقتضى الجوار والتنقل والتجارة والقصص والاساطير المروية .

اما بالنسبة لجيش المشرق وقائده قتيبة بن مسلم الباهلي ، فقد اختلف كل شيء ، فلا توجد قبائل عربية ولا اثر للغة العربية ، كما اختلفت العادات والتقاليد والاديان ، فاوجد ذلك الحال صعوبات جمة ، تطلبت منه جهدا كبيرا ووقتا للاستطلاع وتنظيم عملية جمع المعلومات وتنظيم جهاز الامن والاستخبارات ، والاعتماد على الخديعة والحيلة في الحرب ، وذلك ما يفسر لنا اهتمامه بالكتمان أكثر من غيره من القادة العرب ، وعنايته في الاستخبارات وبث الجواسيس والوكلاء ، وعقده للاتفاقيات لمهادنة بعض الملوك كيما يتهيأ له الوقت للقضاء على الآخرين .

كما ان ذلك يفسر لنا سبب قسوته في بعض الاحيان في معاملة المتمردين والثائرين عليه من سكان بلاد ما وراء النهر وقسوته حتى مع قواده وضباط ركنه .

ومعلوم ان المجهول شيء مخيف ومن يعيش في وسط مجهول يظن بكل شيء وتلفه الظنون والشكوك حول كل شيء ، فيتخذ الحيطة والحذر . وقتيبة الذي كان في وسط مجهول بحكم اختلاف اللغة والعادات وطبيعة الارض والمناخ وأسلوب القتال ، وابتعاده هذه المسافة الطويلة عن العراق ـ وهو العربي من العراق ـ قد جعله يظن ويشك ، ما لم يكن هناك دليل عقلي ومنطقي وعملي ينير أفكاره . ولعل هذه الحال هي التي جعلت منه أكثر القادة العرب حنكة وتقديرا للموقف وصبرا على المكاره جميلا . ومن المناسب ان نذكر حادثة وقعت له مع أحد قواده : اذ بينما كان قد سهر الليل يفكر في حل معضلة عسكرية ، وكيف يمكنه ان يخدع خصومه فيخوض معركة ناجحة . وقد وجد الحل بان يتحرك باتجاه مغاير تماما لما يتوقعه خصمه لكي يوهم الخصم بانه لايقصده ، فيترك خصمه في حالة استرخاء ، ثم يعود كالبرق الخاطف مستديرا نحو خصمه هذا ، وبحرب خاطفة يأخذه فيها على حين غرة ، فيدمر قطعاته العسكرية ، ويفتح مدينته وتنتهي المعضلة العسكرية التي واجهها .

لقد كان أحد قواده وهو المجشر بن مزاحم السلمي يفكر في نفس المعضلة ، وقد سهر الليل تماما كما سهر قتيبة . فتوصل الى نفس ما توصل اليه قتيبة من تقدير وخطة ، وكأنه علم توافق الآراء (التلابائي) قد حدث بينهما .

وفي الصباح الباكر لليوم التالي ، دخل القائد على قتيبة في مقره مقترحا عليه نفس الخطة التي توصل اليها قتيبة ، وفحواها : لماذا لا نخدع خصمنا بأننا ننوي مهاجمة بلدة أخرى ، وبعد مسيرة يوم واحد أو يومين نبدل فجأة اتجاه التقدم، فنتقدم نحوه ونقضي عليه في الوقت الذي يكون هذا الخصم قد ظن اننا قد تحركنا نحو غيره . فقال قتيبة : حسناً . هل أشار عليك بهذا الرأي أحد . قال : لا .

قال قتيبة : هل تحدثت بهذا الرأي الى أحد ؟ قال : لا . قال : أما والله لو سمعه منك أحد لضربت عنقك ، فانها خطتي وقد فكرت بها أمس ، فاكتمها .

فليتصور القارىء ان قتيبة يجابه قائده بانه يضرب عنقه ، وبهذه الصراحة ، لو كان قد تحدث الى أحد حول الموضوع . تصور أهمية الكتمان بالنسبة لهذا القائد البطل الذي قرر قرارا خطيرا يسهل فيه تضحية قائده في سبيل المصلحة العامة . ولا احسب انه كان سيضرب عنق قائده فقط ولكن عنق السامعين من قائده ايضا. وتلك ولا شك أعلى درجات الحرص على أمن المعلومات وأمن الحركات ، وهما من المواد الاساسية التي تدرس الآن في علم الاستخبارات العسكرية .

واكرر ان هذه الحادثة كما رواها البلاذري ، تفسر سلوكه العسكري ، وبعض مظاهر واسباب قسوته وفرض الانضباط الصارم على قطعاته العسكرية وسكان المناطق التي تجري فيها الحركات العسكرية .

الاختلافات السياسية

لقد تحرك القواد العرب العظام قبل قتيبة ، مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والمثنى بن حارثة وعمرو بن العاص ، ولم يكن في عاصمة الخلافة ولا في الاقطار العربية خلافات سياسية ومناحرات ومشاحنات أو معارضة. فالكل في نفس خط القيادة من أصغر جندي حتى أكبر قائد ، يدينون بعقيدة واحدة ، وتقودهم قيادة سياسية موحدة ، وواضح ذلك في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما •

أما في قيادة قتيبة ، فان جنوده الذين اقتحم بهم نهر جيحون ليجتاح بلاد ما وراء النهر هم عراقيون ، وكان العراق مسرحا لصراعات سياسية عنيفة سفكت فيها دماء كثيرة في واقعة صفين بين الامام علي (رض) وبين معاوية بن أبي سفيان • ودارت حروب طاحنة بين جيش الامام والخوارج ، وبين الامويين والمختار الثقفي، وبين الامويين وابن الزبير ، وأخيرا تمرد ابن الاشعث • وانقسم الناس الى مؤيد للامويين والى معارض لهم • ولا احسب ان جيش قتيبة كان يخلو من هؤلاء ، سيما وان النفير العام الذي أعلنه الحجاج في العراق ، قد ساق كل العراقيين الى ميادين القتال ، سواء مع جيش قتيبة بن مسلم أو مع جيش محمد بن القاسم في السند (باكستان الحالية) •

ولا شك ان اخضاع هؤلاء الجنود لانضباط صارم،وصقلهم بعقيدة واحدة موحدة لجميعهم ، وقيادتهم في حومات الوغى لهو من الامور الصعبة التي لابد أنها كانت تتطلب حكمة ونهى ،

وعبقرية فذة تجعل الجندي يتعلق بالهدف ، وهو الانتصار في المعركة ، ويتعلق بقائده وهو قتيبة ، فيطيعه أكثر من تعلقــــه بمخلفات الماضي بكل ما فيه من مآس وآلام. ويدرك ذلك ولاشك من لا زال يشعر أو يعلم بأن تلك المخلفات والرواسب ، لا زالت موجودة حتى يومنا هذا بعد مرور حوالي ١٣٠٠ عام على قتيبـة الباهلي .

خمول ذكر قبيلته

لا شك ان البيوتات الكبيرة والزعامات القبلية كانت تمثل البرجوازية الكبيرة والارستقراطية في المجتمع العربي سواء قبل الاسلام أو بعده .

وتزداد أهمية الشيخ أو رئيس القبيلة كلما كانت القبيلة كبيرة . وعبر تاريخنا وبطولات القادة الرواد الافذاذ ، ندر ان نجد قائدا من عامة الشعب . فالقادة القريشيون كانوا من بيوت معروفة ، كخالد بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاص السهمي وعكرمة بن ابي جهل ويزيد بن ابي سفيان وسعد بن ابي وقاص وهو من اخوال الرسول (ص) ، والمثنى بن حارثة وهو زعيم بني شيبان الذين انتصروا في ذي قار على الفرس ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي وهو زعيم زبيد اليمانية ، وطليحة الاسدي رئيس بني اسد ، والقعقاع وأخيه عاصم ابني عمرو التميمي وهما رئيسا بني تميم ، وعقبة بن نافع وهو ابن اخت عمرو بن العاص...الخ.

أما قتيبة بن مسلم الباهلي فهو من قبيلة باهلة ، التي كانت توصف بخمول الذكر وقلة العدد ، وانه لشيء جدير بالاهتمام ان يبرز منها قائد فذ في مجتمع كانت تحكمه العادات القبلية ،وتتحكم فيه الارستقراطية والبرجوازية الكبيرة ، وتلك ولا شك احدى مفاخر الادارة الاسلامية ، التي كانت تهدف الى تبريز الاكفاء وتأهيلهم لتسلم المناصب العالية . ولم يعرف عن باهلة انها انجبت سوى قائدين كبيرين ، أولهما سلمان بن ربيعة الباهلي فاتح

أرمينية ، والذي كان يلقب بسلمان الخيل لفروسيته وكفايته في قيادة كتائب الخيالة ، وخبرته ودرايته بالخيول وتربيتها وتدريبها. وكان سلمان فارسا مغوارا في القادسية ، ثم من أبرز قواد الخليفة عثمان بن عفان (رض) في شرقي الاناضول والققفاس . وكان يقود القطعات المتقدمة من العراق . بينما كان على رأس القطعات المندفعة من الشام حبيب بن مسلم الفهري ، وكانت كتائب سلمان أكثر جمعا للغنائم بسبب حسن استخدامه لكتائب الخيالة ، وسرعتها في التقدم ، مما أغضب بعض الجهلة في القطعات المتقدمة من الشام ، وفكروا في قتل سلمان الخيل ، فقال شاعر من قطعات سلمان :

فان تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم
وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

والثاني هو قتيبة بن مسلم الذي نحن بصدده ، ولم يكن من السهل الميسور ان يتبوأ منصب والي الري (منطقة طهران) ،وهي المنطقة التي تفور بالمشاكل والنعرات والمؤامرات ، وهو في سن الثلاثين ، مالم يكن على درجة عالية من الكفاية وحسن التدبير وتصريف الامور ، وقد أثبت جدارة فذة في قيادة جيش المشرق فيما وراء النهر بعد ذلك .

كما لم يكن من السهل الميسور ان ينضوي تحت لوائه قادة من قبائل يعتبرون أنفسهم أجدر بالقيادة ، وأكثر تأثيرا على قبائلهم من قائد باهلي .

ولعل هذه المشكلة كانت أحد أهم الاسباب التي جعلت قتيبة ينصرف الى فرض انضباط وطاعة صارمين ، لكي يتمكن من صقل الجميع في بوتقة قيادته . فتكون وحداته بما تضم من قبائل ذات أمجاد وتاريخ مشرف في الحروب ، أطوع اليه من بنانه .

كما كانت هذه المشكلة احد أهم الامور التي سببت مقتله ، اذ تآمر عليه وكيع التميمي وجمع من بني تميم والازد عشيرة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، القائد الذي سبق قتيبة وخلفه بعد استشهاده ، وبالتآمر مع الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك ، فاغتالوه ارضاء لرغبات ونزوات الخليفة الذي نكل بكل القادة الميامين الذين قادوا الجيوش نحو الانتصارات الباهرة ، كموسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي لا لشيء سوى انهم آزروا الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وايدوه في انتخاب ابنه خليفة من بعده بدلا من اخيه سليمان . وخمول ذكر العشيرة ، وقلة عددها ، كان من الاسباب المانعة من تولي القيادة أو الادارة ، وجميل ان نذكر هنا جزءا من المناقشة بين الخليفة هشام بن عبدالملك وعبدالكريم بن سليط الحنفي ، الذي كان يستشيره في انتخاب والٍ لخراسان ، وقد ذكرها ابن زيني دحلان في كتابه الفتوحات الاسلامية الجزء الاول ص ٢٢٨ (... فقلت : عقيل ابن معقل الليثي ان غفرت هنته . قال : ما هي ؟ قلت : ليس العفيف ، قال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : منصور بن أبي الخرقاء السلمي ان غفرت نكره فانه مشؤوم ، قال : غيره ، قلت : فالمجشر ابن مزاحم السلمي ، عاقل شجاع له راى مع كذب فيه ، قال :

لا خير في الكذب ، قلت : يحيى بن الحصين قال : الم اخبرك ان ربيعة لا تسد بها الثغور ، فقلت : نصر بن سيار ، قال : هو لها ، قلت : هو عفيف مجرب عاقل ان عفوت له واحدة ، قال : ما هي ، قلت عشيرته بخراسان قليلة . قال الخليفة : لا أبا لك تريد أكثر مني عشيرة ، انا عشيرته فكتب عهده وبعثه مع عبدالكريم ...) .

ذلك جرى بعد تعيين قتيبة باربعين سنة ، أو بعد استشهاده بعشرين سنة ، بل وللاسف لا زالت بعض مظاهر تلك القاعـــدة جارية لحد الآن في بعض أنحاء الوطن العربي .

الفصل الثالث

معاركه وفتوحاته

طبيعة الارض

١ - تقع بغداد على ارتفاع ٣٦ مترا عن سطح البحر والكوفة على ارتفاع ٣٠ مترا وتأخذ الارض بالارتفاع شمالا حتى تبلغ أعلى نقطة في جبل السكران ٣٦٦٠ مترا جنوب شرقي رايات على الحدود العراقية الايرانية .

اما شرقا فتأخذ الارض بالارتفاع أيضا فتصل في المنذرية شرق خانقين الى ارتفاع ٢٠٩ أمتار وتصبح في قصر شيرين بارتفاع ٥٠٠ متر .

وتستمر بالارتفاع داخل الاراضي الايرانية فتصل في أعالي الهضبة الايرانية الى ارتفاعات تتراوح بين ٥٦٥٣ مترا شرقي طهران و ٥٢٨٨ مترا في الجبال الكائنة جنوب مشهد .

٢ - وتتصل الهضبة الايرانية وجبالها بسلاسل جبال افغانستان وآسيا الوسطى السوفيتية أو ما نسميها بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) اتصالا متكاملا حتى تكاد تشكل منطقة جبلية واحدة تشتد وعورتها كلما اتجه المسير شرقا حتى تصل اشد ما تكون من الوعورة والارتفاع في هضبة بامير المشهورة وجبالها العالية عند الحدود الصينية السوفيتية حيث تبلغ ارتفاعا مقداره ٧٤٣٩ مترا في القمة المسماة حاليا قمة لنين . اما اعلى ارتفاع لجبال

بامير فهو ٧٦٩٠ مترا جنوب كوروك (لاحظ الخريطة رقم ١ خريطة آسيا الوسطى الطبيعية) .

وتتصل بامير هذه بسلسلة جبال الهملايا في الهند حيث تبلغ اقصى ارتفاع في العالم وهو ٨٨٤٨ مترا في قمة أفرست ، وبجبال هندكوش التي تمتد داخل افغانستان ، كما تتصل هضبة بامير باقليم سيكيانج الصيني الكائن شمال التبت والذي تقع فيه مدينة كاشغر الصينية .

٣ ـ ان سهل وادي جيحون الذي ينبع من هضبة بامير وجبال طاجكستان في الاتحاد السوفيتي وجبال هندكوش في افغانستان ويصب في بحيرة اورال . وكذلك سهل وادي سيحون الذي ينبع من شمال بامير ويصب في بحيرة اورال شمالا ، يشكلان جيبا داخل منطقة الجبال العالية لآسيا الوسطى .

٤ ـ وهذا السهل محصور بين بحر الخزر من الغرب ، وجبال مشهد الايرانية وجبال افغانستان من الجنوب ، وجبال طاجكستان وقرغيزيا وازبكستان من الشرق .

فتقع مدينة طاشقند في شمال الحافات الغربية لتلك الجبال ، وتقع مدينة سمرقند خارج وسط الحافات الغربية بينما تقع مدينة ترمذ (ترمز) في الجنوب من تلك الحافات .

اما مدينة عشق اباد عاصمة تركمانية حاليا ومرو فتقعان الى الشمال من الحافات الشمالية للجبال الايرانية والافغانية التي تحد السهل من الجنوب (لاحظ الخريطة) .

والى الشمال من المنطقة المذكورة تقع أراضي كازاغستان

وسهولها الواسعة ، والتي ترتفع اراضيها فتشكل جبالا عالية عند الحدود الصينية الى الشرق من مدينة الماتا عاصمة كازاغستان والى الجنوب الشرقي من بحيرة بلكاش •

٥ ـ وتمتد في المنطقة ثلاثة أنهار رئيسية هي :

أ ـ نهر هارى رود الذي ينبع من جبال كابل الافغانية ويجرى غربا فيجرى جنوب مدينة هرات الافغانية ثم يجرى شمالا فيدخل الاراضي السوفيتية (تركمانيا) عند مدينة صالح اباد ويستمر شمالا ثم ينحرف باتجاه شمالي غربي مارا من منتصف المسافة بين مدينتي مشهد الايرانية ومرو السوفيتية حتى يصب في صحراء الرمال غرب مرو •

ب ـ نهر جيحون (اموداريا) الذي يوازي هارى رود ولكنه يقع الى الشمال منه وهو يجرى من الجنوب الى الشمال حتى بحيرة اورال وتشكل اعاليه الآن الحدود السوفيتية الافغانية ومن أهم فروعه التي تصب فيه (خريطة رقم ١) :

اولا ـ نهر مورزاب وينبع من افغانستان وهضبة بامير ويجرى نحو الغرب في طاجكستان ويصب في جيحون عند قرية روشان •

ثانيا ـ نهر فخش الذي ينبع من هضبة بامير في طاجكستان باتجاه جنوبي غربي ويصب في جيحون جنوب قرية شارتوز •

ثالثا ـ نهر كافرنيكان وينبع أيضا من سفوح هضبة بامير الغربية ويجرى باتجاه جنوبي غربي ويصب في جيحون جنوب قرية شارتوز ايضا •

رابعا ـ نهر سورخنداريا الذي ينبع من جبال طاجكستان الشمالية وينحدر باتجاه غربي ويصب في جيحون عند مدينة ترمذ (ترمز) في اوزبكستان •

خامسا ـ نهر زرفشان وينبع من سلاسل الجبال شرقي سمرقند في اوزبكستان ويجرى غربا فيمر بمدينة سمرقند ثم يستمر غربا فيمر بمدينة بخارى ويصب في جيحون عند مدينة فاراب الازبكية مقابل مدينة جاردجو التركمانية على الجانب الايسر •

جـ ـ نهر سيحون (سريداريا) (خريطة رقم ١) •

وهويوازى جيحون (اموداريا) ويجرى شمالا حتى يصب في بحيرة اورال من ساحل كازاغستان واهم فروعه التي تصب فيـــه :

أولا ـ نهر قره داريا الذي ينبع من سلاسل جبال تيان شان الغربية الى الشرق من فرغانة عند الحدود الصينية السوفيتية الحالية ويجرى نحو الغرب فيلتقي بنهر نارين جنوب مدينة نامنكان في اوزبكستان فيشكلان معا نهر سيحون •

ثانيا ـ نهر نارين الذي ينبع من سلاسل جبال تيان شان عند الحدود الصينية السوفيتية جنوب بحيرة ايسكول في قرغيزيا ، ويجري غربا فيلتقي بفرع قره داريا كما أسلفنا جنوب مدينـــة نامنكان •

ثالثا ـ نهر بسكم وينبع من الجبال الكائنة شرقي مدينـــة طاشقند ويجرى غربا فتقع طاشقند عليه ثم يصب في سيحون بعد مدينة جيناز •

رابعا - نهر عريس الذي ينبع من الجبال شرقي طاشقند ويجرى نحو الشمال الغربي فتقع عليه مدينة جمكنت في كازاغستان ثم يصب في سيحون غرب قرية شاولدر .

وتشكل الانهار الثلاثة وفروعها وفرة مائية عظيمة تروى السهول الخصبة في تركمانية وازبكستان وطاجكستان وقرغيزيا وكازاغستان .

كما انها تشكل موانع مائية مهمة يصعب عبورها بدون استعدادات خاصة للعبور خصوصا في الفترة التي نحن بصددها أيام قتيبة بن مسلم الباهلي .

وتعتبر مجموعة السهول هذه من أغنى بقاع العالم بالمحاصيل الزراعية وغنية بالمدن والقرى العامرة لذلك كانت تسكنها كتل سكانية كبيرة من التتر والاتراك والصغد والطاجيك والازبك .. الخ . وصفها ياقوت الحموي في معجم البلدان فقال (ناحية كثيرة المياه نضرة الاشجار متجاوبة الاطيار مونقة الرياض والازهار ملتفة الاغصان خضرة الجنان تمتد مسيرة خمسة أيام لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها وفيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند وقصبتها سمرقند) اما الجبال فهي مكسوة بالغابات والاحراش في القسم الجنوبي الكائن في طاجكستان ، ووعرة وحشية جرداء في السلاسل الكائنة الى الشرق من سمرقند وطاشقند . وهي في كل الحالات مناطق يصعب اقتحامها وعبورها ، وتسهل بما فيها من مضائق وأخاديد ووديان سحيقة

مهمة الدفاع ، سواء باعداد المواضع الدفاعية أو الموانع أو وضع الكمائن واعداد المفاجآت الخطيرة للجيش المتقدم .

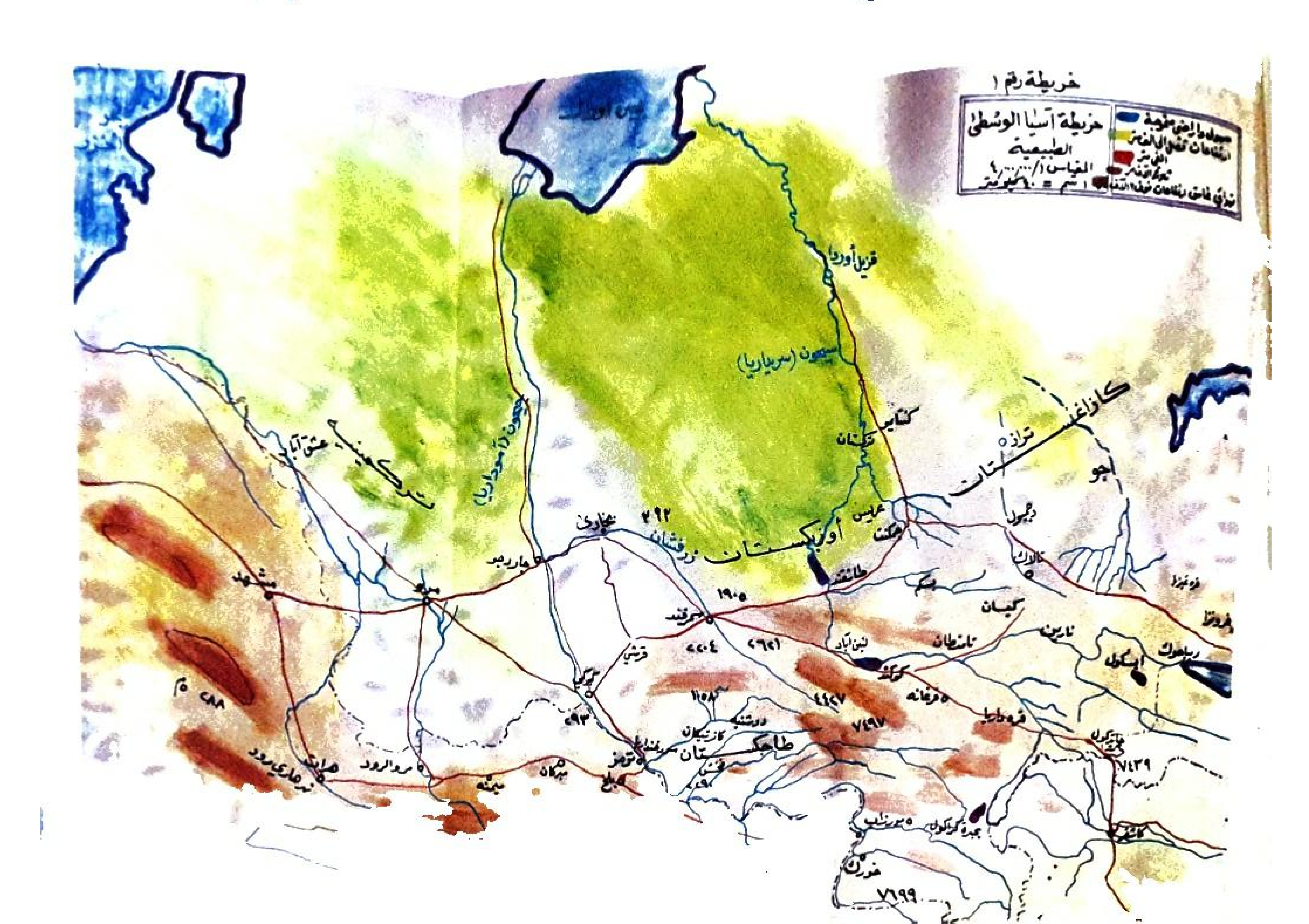
ولا يوجد في هضبة بامير وجبال تيان شان شمالها سوى ثلاثة معابر الى الصين حيث تقع مدينة كاشغر الصينية في اقليم سيكيانج عبر الجبال الوعرة وهي :

أولا ـ المعبر الذي يمر عبره الطريق الذي يربط مدينة ريباجي السوفيتية في جمهورية قرغيزيا والكائنة على الساحل الغربي لبحيرة ايسكول (ارتفاع ١٦٠٩ أمتار) بمدينة نارين القرغيزية الكائنة على نهر نارين أحد فروع نهر سيحون (سريداريا) والذي يمتد جنوبا فيمر غرب وجنوب بحيرة جاتركول القرغيزية على الحدود الصينية تماما حيث تبلغ ارتفاعات قمم جبال تيان شان عند الحدود الصينية ٧٤٣٩ مترا . وفي نهاية معبر الحدود هذا قرية فالكين الصينية ثم مدينة كاشغر الكائنة على مسافة ١٤٠ كيلومترا جنوب المعبر . ويسمى المعبر باللغة الانكليزية معبر تيترك . وقد علمت من احد الخبراء الصينيين المختصين بتاريخ القرون الوسطى بواسطة أحد الاصدقاء في السفارة الصينية في هلسنكي ، ان اسم المعبر باللغة الصينية تولوكرت .

ثانيا ـ المعبر الذي يمر عبره طريق التجارة القديم بين الصين وبلاد ما وراء النهر الذي يربط سمرقند بمدينة خوجنده (لينين آباد حاليا) بفرغانة ثم يسير شرقا الى مدينة اوزكند في قرغيزيا ويعبر الحدود الى الصين من نفس المعبر الذي اشرنا اليه في (أولا)

أي يعبر الحدود الصينية الى كاشغر من جنوب بحيرة جاتركول القرغيزية الآن .

ثالثا ـ المعبر الذي يفصل هضبة بامير عن جبال بكلنونة عند اعالي نهر فخش او (وحش) والذي يقـــع الى الغرب من كاشغر والكائن شمال بحيرة قراقول في القسم الشمالي الشرقي من جمهورية طاجكستان السوفيتية وهو بارتفاع ٧١٣٤ مترا عند الحدود الصينية السوفيتية ، وقد اجتاز قتيبة الطريق والمعبر في (ثانيا اعلاه) وهو الطريق الذي يربط فرغانة بكاشغر الى الجنوب من بحيرة جاتركول نظرا لتوسطه اولا ، وقربه من فرغانة ثانيا ، ووعورة المعبر الجنوبي ثالثا ، وابتعاد الطريق الشمالي المار قرب بحيرة ايسكول رابعا .



خريطة رقم ١
خريطة آسيا الوسطى الطبيعية
تركمنستان
أوزبكستان
كازاغستان
طاجكستان
جيحون (آمو داريا)
سيحون (سرداريا)
قزيل أوردا
بخارى
سمرقند
طشقند
مرو
مشهد
هراة
ترمذ
بلخ
خوقند
فرغانه
تراز
٢٩٢
١٩٠٥
٧٤٩٧
٤٤٢٧
٧٤٣٩
٧٦٩٩

الموقف السياسي والعسكري للطرفين

١ ـ العرب

أ ـ الموقف السياسي

كان العرب عام ٨١ هجرية المقابل حوالي ٦٩٩ ميلادية ، قد سيطروا على البلاد ، من القسم الغربي من افغانستان شرقا حتى المحيط الاطلسي غربا ، وفي الشمال توغلوا الى شمال القفقاس وشمالي آسيا الصغرى (الاناضول) ، وهاجموا القسطنطينية عاصمة الروم الشرقيين عدة مرات دون ان يفلحوا في فتحها •

كما استقر للخليفة الداهية عبدالملك بن مروان الحكم في دمشق ، سيما بعد القضاء على تمرد عبدالرحمن بن الاشعث ، الذي ثار على الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق ، مستغلا قيادته لجيش المشرق في افغانستان •

وباشر الخليفة وابنـــه الوليد بن عبدالملك في تنظيم أمور الدولة الواسعة ، باجراءات ادارية وتنظيمية ، شملت تأسيس الدواوين ، ونشر اللغة العربية وتعميمها ، وسك العملة العربية ، وتنظيم الادارة بانتخاب الولاة الاكفاء ، وقادة الجيوش ، وتنظيم الامور المالية والاقتصادية ، مما جعلها احدث دولة في ذلك العصر •

وكـــان من ضمن الاجراءات الحديثة ، تعيين والي الري قتيبة بن مسلم الباهلي ، واليا على خراسان (القسم الشـــمالي الشرقي من ايران) ، وسجستان (القسم الشمالي من افغانستان وعاصمته كابل) ، وقائدا لجيش المشرق الشمالي • كما جرى تعيين محمد بن القاسم الثقفي ، قائدا لجيش المشرق الجنوبي ، في افغانستان الجنوبية • وكان يقود جحفل الجيوش الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق ، من الكوفة ، وكان بامرته علاوة على الجيشين المذكورين ، الجيش الاحتياطي في العراق ، الذي كان موزعا على الحاميات في البصرة والكوفة وواسط •

ب ـ الموقف العسكري

لقد وضعت الخطط العسكرية لفتح السند وبلاد ما وراء النهر ، فجرى عمل دؤوب واسع لتجهيز الجيوش لتقـوم بعمـل واسع النطاق ، ولتباشر مرحلة حاسمة في المنطقتين •

وفيما يتعلق بقيادة جيش المشرق الشمالي ، عمل قتيبة على توطيد الامن والنظام بعد أستلام مهامه الجديدة في خراسان ، فسيطر سيطرة تامة على خراسان والقسم الشمالي من افغانستان ، واتخذ من مدينة مرو قاعدة لحركاته ، فبنى فيها معسكرا واسعا ، وجعلها منطقة ادامة تحوى كل ما يحتاجه الجيش من تجهيزات عسكرية •

وكان العرب يتمتعون بمعنويات عالية جدا ، تشدهم عقيدة الاسلام ، وتوحدهم تعاليم الاسلام بالجهاد لاعلاء كلمة الله ، ويبدو ان اشغال الناس بالجهاد كان أيسر السبل على المقر العام

في الشام ، ومقر الجبهة الشرقية في الكوفة ، سيما بعد احداث تمرد ابن الاشعث المؤسفة وما تبعها من قيل وقال ، قد يجر الى فتنة أخرى •

ولما كانت موارد الدولة قـــد ازدادت ، وتنوعت مصادر التمويل ، فقد كانت حالة الجيوش العربية على أحسن ما يسكن تصوره في ذلك الزمان ، فتأهبت كل التأهب للاندفاع عبر نهر جيحون شمالا ، والى وادي السند في الباكستان الحالية جنوبا ، ويبدو ان الاسباب الرئيسية لتلك المرحلة كانت كما يلي :

أولا ـ تنفيذ تعاليم الاسلام بالجهاد لكي لا يتهم الخليفة ولا الحجاج بانهما يخلان بالدين الحنيف •

ثانيا ـ اشغال الناس بعمل جدي بدلا من الاسترخاء الذي يجلب القيل والقال ، مما يثير جدلا أو يسمح لدعـاة السـوء باضعاف الروح المعنوية •

ثالثا ـ حســم الموقف في خراسان وجنوب افغانستان ، بتوطيد الامن والاستقرار عند فتح مناطق ابعد منها ، ودفــع سكان هذين الاقليمين للجهاد مع العرب ، فتكون لسكانهمـــا مصلحة في الجهاد والانتصار •

رابعا ـ تأمين حدود الدولة المترامية الاطراف بالقضاء على أخطر قوتين كانتا تتواجدان في الشرق ، وهما الدولة الهندية في الجنوب الشرقي ، والامارات التركية الست الكبيرة المتفرقة فيما وراء النهر ، قبل ان تتحد فتشكل تحديا خطيرا للعرب والمسلمين يهدد خراسان بل ايران كلها ، سيما وان غزوات العرب قبل قتيبة

كانت قـــد نبهت تلك الدويلات التركية الى الاستعداد وتجهيز الجيوش ، حتى بلغ تعداد بعض تلك الجيوش ما يزيد على ضعف جيش العرب •

خامسا ـ وأرى ان عوامل ذاتية وشخصية كان لها دخل في فتح بلدان جديدة ، ذلك ان الحجاج كان يريد ان يظهر بسظهر بطل الدولة (وهو كذلك) ، ليس في تطبيق ضبط صارم ومعاقبة الخارجين على النظام ، وانما يهتم أكثر من غيره في تطبيق تعاليم الاسلام ونشر الدين الاسلامي ، ومجد وعزة العرب ، وكذلك كان حال الخليفة سواء عبدالملك بن مروان أو ابنه الوليد بن عبدالملك ، وليس من شك في ان والي خراسان الجديد قتيبة بن مسلم كان ممن يهمه جدا ان يجرب اصالة رأيه وشجاعته ودرايته في الشؤون العسكرية ، وربمـــا كان اكثرهـــم شوقا وطلبـــا للانتصارات ، وفي منطقة عجز من سبقه عن السيطرة عليها •

سادسا ـ ان موارد ما وراء النهر والصغد كانت ستضيف موردا هائلا للدولة العربية فتوطد أركانها ، وتقوى جيوشها ، وتعلي شأنها ، وتجعلها أكثر قدرة على مواجهة امبراطورية الروم في القسطنطينية والقضاء عليها •

٢ ـ بلاد ما وراء النهر

آ ـ الموقف السياسي :

ليس من السهل الخوض في التاريخ السياسي لممالك آسيا الوسطى أو ما تسمى ببلاد ما وراء النهر ، فان معظم المصادر التاريخية لا تتحدث الا باقتضاب حتى عند الاشارة الى الغزوات والفتوحات ، لذلك ساعتمد على ما نقلـــه المستشرق الهنغـاري ارمينوس ڤامبرى في كتابه (تاريخ بخارى) عن المؤرخ العربي النرشخي •

فيذكر ان بلاد ما وراء النهر كانت ارضا بكرا ، فسكنها التركستانيون الشرقيون (ومهدوا لقيام قرى تركمرود وبروانه وأسوانه ونور ، وأختار هؤلاء من بينهم أميرا ولوه عليهم ، وكان يدعى ابرزى فسكن بيكند ، أي مدينة الامير ••• وامعن ابرزى هذا في الاستبداد شيئا فشيئا بازدياد سلطانه ، حتى اضـــطرت الطبقات الغنية ، بسبب عسفه ، الى الفرار الى الاقسام الشمالية من الاقليم التركي حيث بنوا مدينة جموكيت أو جمكنت ومعناها في لسان تلك الايام « المدينة الطيبة الجميلة » • أما الطبقة الفقيرة ، فحين شعرت بعجزها عن الوقوف في وجه هذا الامير المستبد ، استعدت عليه الأمير التركي صاحب البلاد التي تجاور أرضـهم وكان يدعى قراجورين ، فسير اليهم جيشا وعليه ابنه شيركشور ، فاوقع ابرزى في اسره ووضعوه في كيس مليء بالاشواك انطلقوا يدحرجونه حتى اسلم الروح) •

(وبعد الخلاص من هذا الظالم استدعى شيركشور الاثرياء من منفاهم وسمح لهم بان يجعلوا من انفسهم طبقة من النبلاء عرفت باسم « خدات » ، في حين صار الفقراء الذين بقوا هناك هم الرعية ... وخلف من بعده أميرا يدعى سكجكت ، ينسب اليه تعمير مدينتي رامتن وفراخشة بالمنشآت ، وحين أتى هذا الامير بخطيبته ابنة امبراطور الصين ، اودعت هذه الاميرة في مدينة رامتن الاوثان التي كانت قد اتت بها مما كان يخصها) .

ويمضي النرشخي في روايته فيقول (ان حاكم بخارى الذي كان يعاصر ظهور الاسلام كان يدعى « بندون » . وقد خلد ذكره بتجديد القلعة التي أقامها افراسياب) « أوسياوش في رواية اخرى » وانه قد كتب (اسمه على لوحة حديدية ثبتت على بوابة القلعة) وقد شاهد هذا الاثر صاحب مرجعنا هذا (أي النرشخي) بعد مرور خمسمائة عام على اقامته .

وترك بندون من بعده ولدا يدعى طغشاد ، وكان حدثا فانفردت بشؤون الملك زوجته التي يدعوها مصدرنا اى النرشخي (خاتون) ، ويقال ان حكمها استمر خمسين عاما ظهر العرب أثناءها بهذه الديار ... وكانت تجلس فوق عرش ومن حولها رجال البلاط والاعيان وتقيم العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها في الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك ، وكانوا يستبدلون بغيرهم في كل يوم ، وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة ان تشترك في أداء هذا

الواجب أربع مرات كل عام • ويفهم من ذلك ان تسعين قبيلة كانت موجودة في دولة بخارى •

وبهـذه السيدة انتهى الحكم الفعلي لاول اسرة حاكمة في بخارى ، فقد حفظ الحكم الاسلامي على من بقى من أعضائهـا القاب الامارة دون النفوذ والسلطان •

(واحتفظ طغشاد باستقلاله ، الى حـد ما ، مدى ثلاثين عاما نظير اعتناقه الاسلام ، وقد اشتبك في حروب مع الترك ، وعلى الخصوص مع من كان يدعى وروان أو وردان[1] • والغالب انه شن هذه الحروب بتحريض من العرب الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له • وكان قد سمى ابنه هذا قتيبة تيمنا باسم القائد العربي المعروف) تاريخ بخارى ص ٤٠ •

ويقول الاكاديمي بابا جان غفوروف في كتابه طاجكستان (كانت آسيا الوسطى في وضع من التمزق السياسي ، فبالاضافة الى الامارات الكبيرة نسبيا « فرغانة ، شاش ، اشروسنة ، صغد ، خوارزم ، خوتتال ، جاغنيال » ، كان في وادي رافدى آسـيا الوسطى عدد من الولايات الاقطاعية الاكثر انحسارا • وكانت في عداء دائم فيما بينها مما اعاق توحيد شعوب آسيا الوسطى من اجل ردع المحتلين الاجانب ، وبهدف احتلال الساحل الايمن من اموداريا (جيحون) وما يسمي ما وراء النهر ، اقام العرب في خراسان ولايتهم مع مركز في مرو ، ومن هنا راحوا يشنون في بداية الامر غارات سلب على المناطق المجاورة ، وفي عام ٧٠٥م

---

(١) يقصد وردان خداه ملك وردان الكائنة شمال بخارى •

عهد باحتلال ما وراء النهر الى والي خراسان الجديد الداهية السياسي والقائد العسكري القاسي قتيبة بن مسلم • ومع مجيء قتيبة بدأت مرحلة جديدة حاسمة لزحف العرب على ما وراء النهر • لقد استغل قتيبة الخلافات الداخلية لحكام آسيا الوسطى وبعد ان جمع المعلومات الضرورية عن البلاد زحف عام ٧٠٥ على ولاية بخارى) •

ويظهر من خلاصة ما سبق ذكره ان الموقف السياسي لبلاد ما وراء النهر كان كما يلي :

أولا ـ دويلات مختلفة متناحرة فيما بينها وهي فرغانة ، والشاش ، واشروسنة وصغد وخوارزم وصاغنيان والختل • (لاحظ الخريطة رقم ٢) •

ثانيا ـ ضعف الاعتبار الدولي لتلك الامارات •

ثالثا ـ سهولة استمالة بعض تلك الدويلات الى جانب العرب ، خصوصا اذا توفرت القيادة السياسية التي تتسم بالدهاء لاستمالتهم •

رابعا ـ ضعف الروح المعنوية لدى شعوب تلك الدويلات ونفورهم من طول المشاحنات والمؤامرات والتطاحن ، الامر الذي جعلهم يستقبلون بالرضى وعن طيبة خاطر أي حاكم عادل كالعرب يتوجه اليهم ، سيما وان سجايا العرب ودينهم كان يأمرهم بالمساواة مع الاقوام الاخرى التي تدين بدينهم •

خامسا ـ يمكن ان تتصور ضمور اقتصاد تلك البلدان نتيجة لتناحرها وفقدان التعاون والتنسيق فيما بينها •

ب ـ الموقف العسكري :

تيجة للموقف السياسي آنف الذكر ، يمكن ان تتصور ان الموقف العسكري لدول ما وراء النهر كان كما يلي :

أولا ـ عداء حاد يتربص كل جيش بالآخر ، ولكنهم يجتمعون ضد الغزاة الاجانب ، وهذا ولاشك يضعف قدرتهم العسكرية ككل ، ولو كانوا في وحدة سياسية لكانت لهم وحدة عسكرية قوية .

ثانيا ـ نقص في الاستعداد العسكري لمواجهة العرب بسبب انشغالهم في الاستعداد ضد بعضهم البعض .

ثالثا ـ انهاك قوى الدويلات بسبب الحروب التي طال أمدها ، والتي شنت ضد الدويلات الاخرى .

رابعا ـ اهمالهم التحصينات الضرورية لمواجهة العرب بسبب انصراف كل اهتمامهم لدحر المجاورين لهم من الدويلات المحيطة بهم .

خامسا ـ تقبل الدول المجاورة لخراسان لفكرة الصلح أو التعاون مع العرب ، نكاية باعدائهم من الدول التركية المتربصة بهم ، خصوصا اذا وجد من العرب من يستغل ذلك لادخالهم في الديانة الاسلامية ، وتوحيدهم مع العرب باعتبارهم مسلمين ، لتدمير اعدائهم الآخرين .

سادسا ـ انعدام التوجيه نحو تطوير الاساليب العسكرية ، وتجهيز الجيوش بالتجهيزات الحديثة في حينه ، لمواجهة ما كان لدى العرب من أساليب عسكرية حديثة ، وتجهيزات حديثة بالنسبة لذلك العصر ، كالمنجنيقات وعربات رمي السهام والدبابات ، واساليب تدريب الخيالة وضروب الفروسية ، والتهديف والقراع بالسيوف ، واستخدام صنف الفعلة (الهندسة) ، وتنظيم أمور المواصلات ونقل الاخبار ، وعمل هيئة الركن والمشاورة وتنظيم الشؤون الادارية والتجهيز ... الخ .

الحركات العسكرية في افغانستان وما وراء النهر قبل قتيبة بن مسلم

١ ـ كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر الاحنف بن قيس بفتح خراسان فنفذ ذلك •

كما امر عمر بن الخطاب نعيم بن مقـــرن المزني (شقيق النعمان بن مقرن المزني بطل معركة نهاوند وقائد الجيش العربي فيها) بفتح جرجان وهي في القسم الشمالي الغربي من افغانستان وفتح طبرستان كذلك وهي الولاية الشمالية من افغانستان ومقرها مدينة هرات •

كما امر الخليفة عاصم بن عمرو بفتح سجستان وهي الولاية التي كانت تضم كابل وقندهار ومنطقة نهر هلمند على الحدود الايرانية ـ الافغانية الحالية •

وكانت تلك الحركات تجرى عام ٢٣ هجرية ٦٤٣م (راجع الخريطة رقم ٢) •

وعندما انهزم كسرى يزدجرد ملك الفرس أمام الأحنف بن قيس وعبر نهر جيحون (اموداريا حاليا) امر عمر الاحنف ان يوقف المطاردة فلا يعبر النهر •

وكان الخليفة عمر شديد الحذر من وجود مانع مائي (نهر أو بحر) بين الجيوش المقاتلة وعاصمة الخلافة (المقر العام) •

٢ ـ وبعد استشهاد عمر وتولي عثمان بن عفان تقدم والي العراق عبدالله بن عامر سنة ٢٥ هجرية / ٦٤٥م الى ولاية سجستان (كابل) ثانية • وتقدم الاحنف بن قيس حسب أوامر ابن عامر الى أعالي جيحون ففتح طخارستان ومركزها مدينة بلخ في شمال افغانستان بما فيها الطالقان والجوزجان والفارياب وذلك عام ٣١ هجرية / ٦٥١م وقد دارت معارك طاحنة بين قطعات الاحنف وجموع العدو من سكان تلك المناطق المسندين بنجدات من ولاية الصاغنيان ـ احدى ولايات طاجكستان جنوب جيحون ـ وكان الاحنف قد نازل ملك الصاغنيان بنفسه وقتله وتمكنت القطعات العربية من دحر العدو الذي انسحب مذعورا باتجاه الجوزجان شرقا فطاردهم الاحنف بكتائب الخيالة التميمية بقيادة الاقرع بن حابس التميمي وتمكن الاقرع من القضاء على العدو وفتح الجوزجان بعد معركة حامية • ويبدو ان خسائر الجيش العربي في الجوزجان كانت مهمة اذ يقول ابن الغريزة النهشلي (فتوح البلدان ج ٣ ، ص ٥٠٤) •

سقى صوب السحاب اذا استهلت
مصارع فتية بالجوزجان
الى القصرين من رستاق حوف
افادهم هناك الاقرعان

وبعد هذا النصر حاول الاحنف التقدم شمالا الى خوارزم على ضفة نهر جيحون الغربية جنوب بحيرة اورال ، الا ان القطعات الخوارزمية صمدت بثبات بوجه الجيش العربي فاستشار

الاحنف قواده ، فقال له أحدهم وهو حصين بن المنذر : لقد قال : عمر بن معدى كرب :

اذا لم تستطع شيئا فدعه

وجاوزه الى ما تستطيع

فلما سمع الاحنف ذلك فهم ان الرأي هو ترك خوارزم ، فعاد الى بلخ .

٣ ـ وفي سنة ٤٥ هجرية / ٦٦٥م كانت ولاية زياد بن أبي سفيان بالعراق فولى أمير بن احمر على مرو ، فقام أمير بجلب القبائل العربية الى مرو فكان اول من اسكن العرب مرو . ثم ولى زياد الحكم بن عمرو الغفاري وكان صحابيا عفيفا . ويبدو ان الحكم باشر بالغزو وعبر جيحون اذ يذكر البلاذري ج ٣ ص ٥٠٦ (وكان الحكم اول من صلى من وراء النهر) .

٤ ـ وفي سنة ٥١ هجرية مات زياد بن أبي سفيان (زياد بن أبيه) فولى معاوية ابنه عبيدالله بن زياد خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقام بأول حملة كبيرة فيما وراء النهر اذ عبر في أربعة وعشرين الفا عام ٥٣ هجرية وكان العبور على الابل ففتح المدن الجنوبية من ولاية بخارى وهي رامدين وبيكند ونسف (مدينة قرشي حاليا) (خريطة رقم ٢) وعقد صلحا مع الخاتون ملكة بخارى .

٥ ـ وفي سنة ٥٦ هجرية / ٦٧٥م ولى معاوية سعيد بن عثمان ابن عفان ولاية خراسان وقيادة الجيش فقام بعبور النهر فوافقت الخاتون على الصلح ، ولكن اعدادا كبيرة من الصغد والترك

وسكان كيش ونسف تجمعوا له في بخارى فندمت الخاتون على الصلح ، اذ تجمع لها مائة وعشرون الف مقاتل ، فدارت معركة شديدة تغلب فيها الجيش العربي فرضخت الخاتون للصلح ، ودخل سعيد بخارى ثم تقدم الجيش العربي نحو سمرقند مسندا بقطعات من جيش الخاتون ملكة بخارى فقبلت سمرقند الحصار فحاصرها سعيد بن عثمان وحاول اقتحامها فدارت معارك عنيفة لمدة ثلاثة أيام دونما نتيجة بسبب صمود حامية سمرقند ، وخارج أسوار المدينة الصامدة فقئت عين سعيد وعين المهلب بن أبي صفرة أحد قواد الجيش حينئذ وانتهت النتيجة الى الصلح ، وخارج أسوار المدينة استشهد قثم بن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النبي (ص) وله مقام كبير الآن في سمرقند .

ويبدو ان مالك بن الريب يتهم سعيدا بن عثمان بالجبن في معركة سمرقند اذ قال فيه :

وما زلتَ يومَ السُّغْدِ تُرْعِدُ واقفا

مـن الجبـن حتى خفتُ ان تَتَنَصَّرا

(فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٠٩) .

٦ - وفي سنة ٦٠ هجرية / ٦٧٩م توفى معـاوية بن أبي سفيان فخلفه ابنه يزيد فولى سلم بن زياد على خراسان ، فعبر جيحون ودفع بقسم من جيشه بقيادة المهلب بن أبي صفرة الى ما وراء خوارزم وانتهت حملة المهلب بالصلح . ثم تقدم سلم بن زياد الى سمرقند فاعطاه حاكمها دية الصلح ، ثم ارسل قطعات الى خجندة وهي في ولاية فرغانة (اسم خجنـدة الآن لينين آباد)

فدارت معركة انهزمت فيها الفرقة العربية . ثم عاد سلم بن زياد منسحبا الى مرو .

وكان اعشى همدان الشاعر العربي المشهور مع القطعات التي اندحرت في خجندة فقال :

ليت خيلي يوم الخجندة لم تهزم وغودرت في المكر سليبا
تحضر الطير مصرعي وتروحت الى الله في الدمـــاء خضيبا

وكان سلم قد استصحب معه عندما عبر النهر زوجته أم محمد بنت عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي فكانت أول عربية عبرت جيحون (البلاذري ج ٣ ص ٥١٠) .

٧ ـ وبعد ذلك اندلعت الفتن والخصومات السياسية في بلاد العرب فتوقفت الفتوح في عهد مروان بن الحكم وابنـــه عبدالملك بن مروان ولما اشتدت الحرب بين عبدالملك وعبدالله بن الزبير سنة ٧٠ هجرية / ٦٨٩م حاولت دولة الروم استغلال هـذه الفرصة السانحة للهجوم على الشام ، فعقد معهـــم عبدالملك بن مروان الصلح على ان يدفع لهم الف دينار في كل جمعة . فتأمل ؟! (الفتوحات الاسلامية ١٦٩) وفي عام ٧٣ هجرية تقـدم جيش رومي على ارمينية فدحرهم محمد بن مروان شقيق الخليفة .

٨ ـ ولاعـــادة الامور الى نصابها في العراق ولى عبدالملك الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وما وراءه وفي سنة ٧٨ هجرية/ ٦٩٦ ولى الحجاج المهلب بن أبي صفرة على خراسان وفي سنة ٨٠ هجرية / ٦٩٨م غزا المهلب الختل وهي ولاية من طاجكستان على نهر فخش بناء على اتفاق مع ابن عم ملك الختل وتمكن من عقد

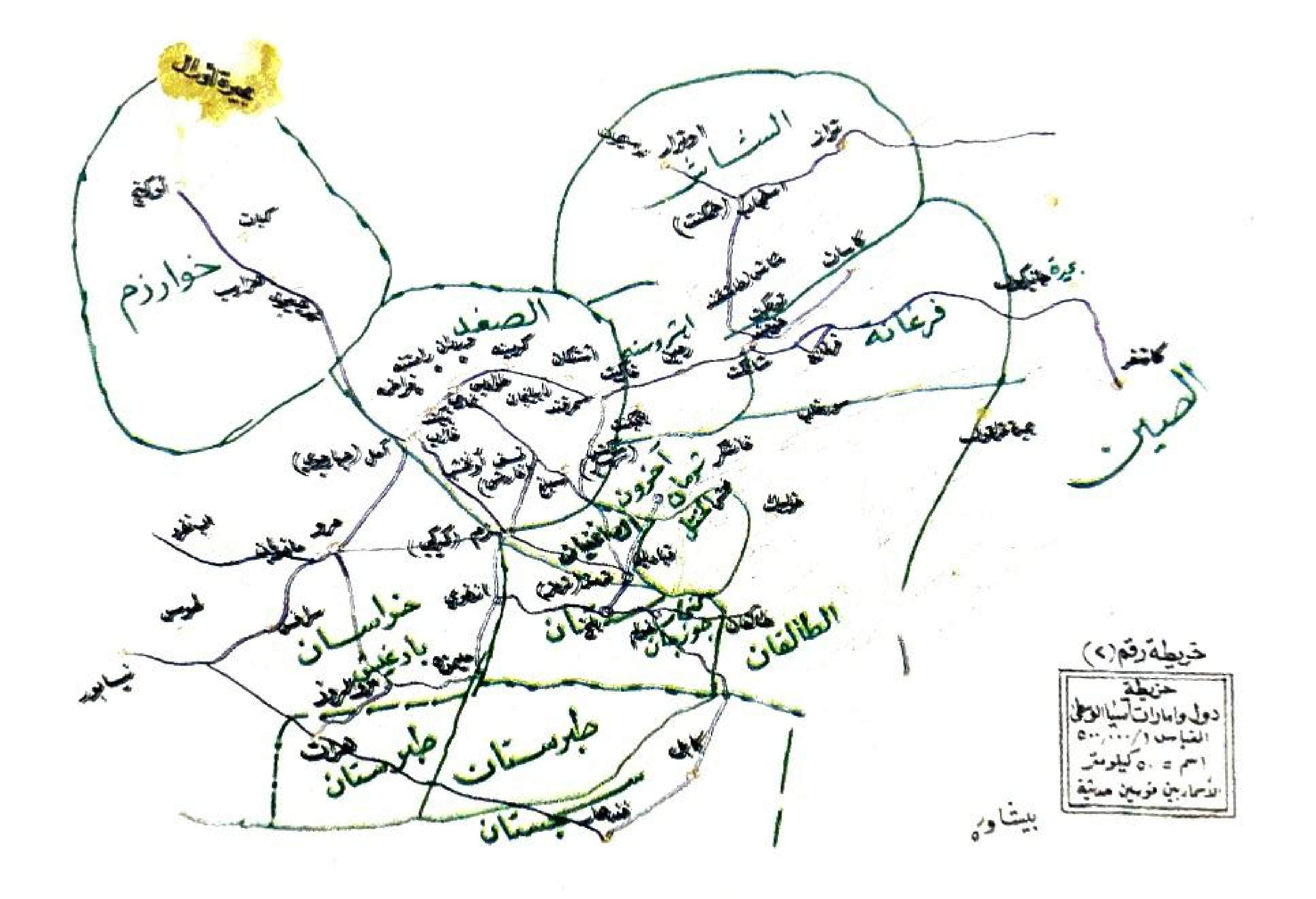
صلح مع الختل ومع ملك بخارى وبقي سنتين فيما وراء النهر في مدينة كش •

٩ ـ وقد توقفت الفتوح ثانية بسبب تمرد عبدالرحمن بن الاشعث الذي كان يقود الجيش في افغانستان وتقدمه نحو العراق واحتلاله للبصرة والكوفة ولم يتم القضاء عليه الا عام ٨٣ هجرية/ ٧٠١م • وفي سنة ٨٢ هجرية توفى المهلب فخلفه ابنه يزيد بن المهلب في ولاية خراسان • وفي عام ٨٦ هجرية توفى عبدالملك بن مروان وخلفه ابنه الوليد بن عبدالملك الذي ابقى الحجاج واليا على العراق فاستقرت الامور السياسية في الوطن العـــربي وبدا التخطيط لاعادة الفتوح فانتخب الحجاج قتيبة بن مسلم والي الري ليكون واليا لخراسان وقائدا لجيش المشرق بدلا من الفضل ابن المهلب الذي كان قد خلف أخاه يزيد بن المهلب الذي عزله لفشله العسكري في خوارزم اذ مات معظم جنـــوده من البرد (البلاذري ج ٣ ص ٥١٤) •

وما ان وصل قتيبة الى مرو لاستلام مهام منصبه الجديد في خراسان حتى وقف خطيبا فسقطت منه عصاه التي كان يحملهـا تسليا ، فتطير الناس وتشاءموا لسقوطها ، ولكن ذكاء الداهيـة وسرعة بديهته وحضورها كان منقذا من هذه البداية غير السعيدة، فتذكر قول الشاعر •

فقال : ليس كما ساء الصديق وسر العدو ولكن كما قال الشاعر (راشد بن عبدالله السلمي) :

وألقت عصاها واستقر بهـا النوى
كمـا قـر عينـا بالاياب المسـاف


خريطة رقم (٢)
خريطة
دول وامارات آسيا الوسطى
المقياس ١/٥٠٠٠٠٠٠
١سم = ٥٠ كيلومتر
الأسماء بين قوسين حديثة
بحيرة آرال
خوارزم
الصغد
الشاش
أشروسنة
فرغانة
الصين
كاشغر
سمرقند
أخرون
شومان
الختل
الصغانيان
الطالقان
خراسان
بادغيس
طبرستان
طبرستان
سجستان
بيشاور

المرحلة الحاسمة

١ - تولى قتيبة بن مسلم قيــادة جيش المشرق وولاية خراسان سنة ٨٦ هجرية / ٧٠٤م وكان قد تدرب على الادارة وقيادة القطعات العسكرية خلال ولايته للري (طهران) • وكان فتى يتحرق شوقا للجهاد في سبيل الله واعلاء شأن العرب والاسلام ، وقد اتصف بالشجاعة واصالة الرأي والدهاء السياسي علاوة على اخلاصه في عمله وحسن سيرته ونظافته ، وقد وصفته كل الكتب والمصادر بالمقدرة العسكرية الفائقة وحسن تدبير الامور •

٢ - وقد وصفه ابن زيني دحلان في كتــابه الفتوحات الاسلامية ص ١٧٩ فقال (وافتتح قتيبة خوارزم وسمرقند وبخارى وقد كانوا كفروا بعد فتحها الاول وبلغ ما لم يبلغه المهلب ولا غيره ، فجهز قتيبة عند قدومه الجيوش للغزو ••• الخ) •

٣ - وقال عنه المستشرق الهنغــاري ارمينوس ڤامبرى في كتابه (تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر) الصفحة ٦١ (وآب العرب من بعد ذلك الى مرو لا ليتركوا سكان بلاد ما وراء النهر المنكوبين وشأنهم ، وانما ليعدوا حملة جديدة ، بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده الى اطفاء آخــر بصيص لحضارة ايران القديمة كان يومض في هذه المنطقة التي ظهرت فيها الحضارة أول ما ظهرت ، ويغرس من بعد ذلك تعاليم النبي العربي في وديان تيان شان المترامية الاطراف • كان هــذا

القائد هو قتيبة بن مسلم الذي أمره الحجاج بفتح بلاد ما وراء النهر عام ٨٦ هجرية / ٧٠٤م • ولما كان قد عزم على ان يمضي في فتح هذا الاقليم ، ونشر الاسلام فيه ، لا أن يغير عليه وينهب ما فيه ، فقد كان عليه ان يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية • هناك جمع جنده في مرو ، وأخذ يذكرهم بآيات الله وأحاديث نبيه[1] ، ثم نزل عن المنبر وامتطى فرسه ••• الخ) •

٤ ـ ويقول عنه الاكاديمي بابا جان غفوروف السكرتير الاول للحزب الشيوعي السوفيتي في طاجكستان (أي رئيس جمهورية طاجكستان في عهد ستالين ورئيس معهد الاستشراق السوفيتي في موسكو وقد توفى سنة ١٩٧٧) في كتابه (طاجكستان) باللغة الروسية ، (وفي عام ٧٠٥ عهد باحتلال ما وراء النهر الى والي خراسان الجديد الداهية السياسي والقائد العسكري القاسي قتيبة بن مسلم • ومع مجيء قتيبة الى خراسان بدأت مرحلة جديدة حاسمة لزحف العرب على ما وراء النهر • لقد استغل قتيبة الخلافات الداخلية لحكام آسيا الوسطى ، وبعد ان جمع المعلومات الضروية عن البلاد زحف عام ٧٠٥ على ولاية بخارى) •

(١) ذكرها ايضا ابن اعثم الكوفي في (ص ٢١٧ ج ٧) من كتاب الفتوح ، بقوله : « وعزم قتيبة على الغزو ، فقام في الناس خطيبا . فحمد الله واثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! ان الله عز وجل انما احلكم هذا المحل ليعز بكم دينه ولتذبوا عن حرمات المسلمين ، وقد امركم بالصبر . ووعدكم النصر . ووعد المجاهدين منكم في سبيله أفضل الثواب وأعظم الذخر . فتنجزوا موعد ربكم ووطنوا انفسكم على مضض الالم . واياكم والهوينا والفشل ـ والسلام » .

انظر الطبري ايضا ٥٩/٨ وابن الاثير ٢٥٢/٤ .

الاستعداد للعبور

لم يضع قتيبة وقتا منذ وصوله الى مرو فقد باشر فورا بما يلي :

أ ـ توطيد العدل والنظام في خراسان لكي يطمئن سكان المناطق المفتوحة ولكي لا تحدث قلاقل تضطره الى فرز بعض قطعاته للقضاء عليها ، ولكي يسمع بذلك العدل سكان المناطق فيما وراء النهر فيسهل عليه استمالتهم وفتحها .

ب ـ جمع المعلومات عن بلاد ما وراء النهر .

جـ ـ رفع الروح المعنوية لقطعاته وتثقيفهم بآيات الله واحاديث النبي (ص) .

د ـ حشد أكبر عدد من القطعات وقد بلغت قطعاته أكثر من اربعين الف جندي .

هـ ـ تهيئة وتكديس التجهيزات والمواد العسكرية الضرورية لحركات كبرى .

و ـ وضع الخطط العسكرية لفتح بلاد ما وراء النهر تباعا .

ز ـ مراسلة ملوك وامراء المناطق التي اسلمت في شمال افغانستان للتهيؤ للزحف .

ح ـ تنظيم خط المواصلات وخدمات البريد مع الكوفة حيث مقر قائد الجبهة الشرقية الحجاج بن يوسف الثقفي ومع دمشق حيث يوجد الخليفة .

العبور وفتح المناطق الجنوبية الشرقية

أ – جرت عادة العرب في غزواتهم السابقة ان يعبروا نهر جيحون أما من ترمذ (الآن ترمز) أو من زم (الآن كيركي) أو من آمل (الآن جهارجوى) والاندفاع نحو بيكند . ثم بخارى وكانوا يتعرضون عندئذ لهجمات على الاجنحة من الجنوب والشمال علاوة على مقاومة العدو لهم من الجبهة .

والآن نرى قتيبة قد تفادى ذلك اذ تقدم عام ٨٦ هجرية / ٧٠٤ م من مرو باتجاه الشرق مع اعالي نهر جيحون في ولاية طخارستان وهي التي تشكل شمال افغانستان الحالية ماراً بمدن اندخوى وبلخ وخولم حتى استقر في الطالقان ، وقد استقبل استقبالا رائعا في بلخ فألقى خطبة الجمعة في مسجدها باسم الخليفة أمير المؤمنين . (خريطة رقم ٢)

ب – وبعد وصوله الى الطالقان بقليل وصلها جيش بلخ ودهاقينها لمساعدته في عبور النهر . وبعد أن تجمع جيشه بكامله عبر جيحون فتلقاه ملك الصاغنيان بالهدايا والترحاب (والصاغنيان هي منطقة وادي كافرنيكان وسورخند وتشكل القسم الجنوبي من طاجكستان السوفيتية حاليا) ولابد ان تكون المراسلات بين قتيبة وهذا الحاكم قد فعلت فعلها لكي يسمح له بدخول الصاغنيان بدون قتال . ويشير صاحب الفتوحات الاسلامية الى ان ملك

اخرون وشومان (القسم الوسطي من طاجكستان حيث توجد العاصمة دوشنبه حاليا) كان في عداء مع ملك الصاغنيان ويهاجمه باستمرار ، ثم تقدم قتيبة نحو اخرون وشومان وقد انضم الى جيشه الملك تيش ملك الصاغنيان انتقاما من ملك شومان عدوه فاضطر حاكم اخرون وشومان الى الاستسلام وقبول الصلح بشروط قتيبة .

ج ـ وبعد ذلك عاد قتيبة مع قسم من قطعاته الى مرو ولكنه سلك طريقا غريبا اذ لم يتبع طريق ترمز ـ مرو أو طريق زم ـ مرو ، بل سار مع جيحون شمالا الى الغرب من بخارى وهي هدفه القادم وعبر جيحون عائدا من آمل (جهارجوى حاليا) راجع الخريطة رقم (٣) . وافرز قسما من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم للتقدم باتجاه شمالي شرقي نحو فرغانة وتلك أيضا حركة غريبة غير اعتيادية . ويبدو انه كان يهدف من حركاته هذه الى :

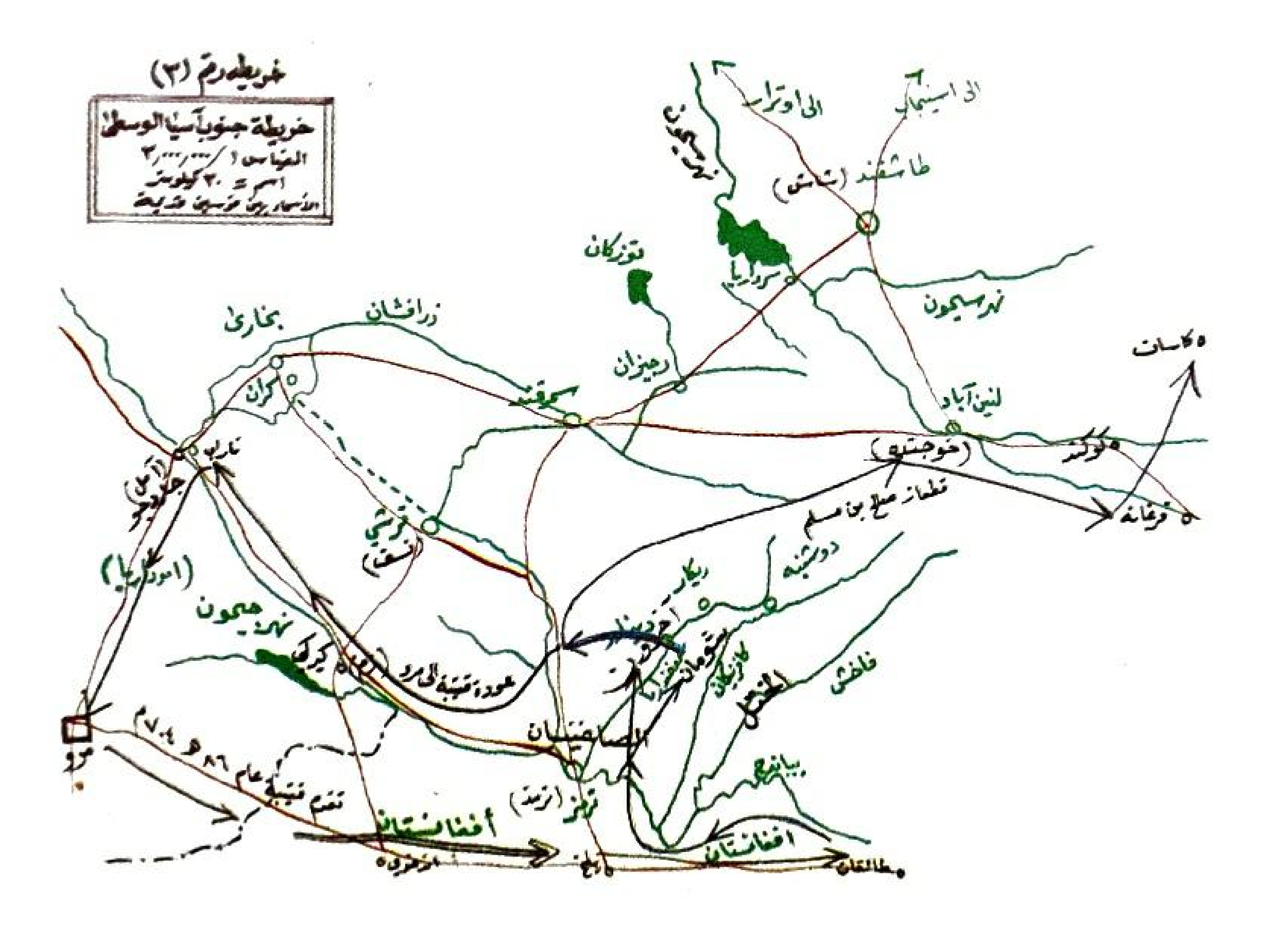
اولا ـ جمع المعلومات عن مناطق الحركات القادمة وحالة الطرق . وذلك بالقيام باستطلاع شخصي وهذا سبب اختيار طريق العودة البعيد والخطر .

ثانيا ـ محاولة فتح القسم الشرقي من بلاد ماوراء النهر وادخالهم في حضيرة الاسلام لحصر مناطق بخارى من الشرق عند هجومه عليها في السنة القادمة من الغرب والجنوب .

ثالثا ـ القيام بعمليةاستعراض للقوة بشكل واضح لتدمير معنويات محاربي جيوش ما وراء النهر .

د ـ تقدم صالح بن مسلم وفتح اخشيكت (وهي فرغانة القديمة) ومدينتي كاسان واورشت من مملكة فرغانة . لاحظ الخريطة (رقم ٣) وتشكل ولاية فرغانة الآن أقصى القسم الشرقي من أزبكستان السوفيتية وكان نصر بن سيار يرافق صالح بن مسلم في هذا الفتح .

خريطة رقم (٣)


خريطة جنوب آسيا الوسطى
المقياس ١ / ٣٬٠٠٠٬٠٠٠
١ سم = ٣٠ كيلومتر
الأسماء بين قوسين قديمة
الى اوترار
الى اسبيجاب
طاشقند (شاش)
نهر سيحون
قوزكان
زرافشان
بخارى
سمرقند
لنين آباد
كاسان
خوجند
فرغانة
قطاع صالح بن مسلم
دوشنبه
نهر جيحون
مرو
أفغانستان
بلخ
طالقان
فاخش
بيانج
الصاغنيان
ترمذ (ترمذ)
عودة قتيبة الى مرو
تقدم قتيبة عام ٨٦ هـ ٧٠٥ م

معركة بيكند

١ ـ يبدو ان خطة قتيبة كانت الشروع بالحركات العسكرية في الربيع والعودة قبل حلول الشتاء الى مرو ، لكي يجنب قطعاته الشتاء القاسي فيما وراء النهر ولكي يعد العـــدة لحملة جديدة واراحة قطعاته والقيام بعملية اعادة التنظيم • وقد جرى ذلك بعد الجولة الاولى التي مر ذكرها •

تقع مدينة بيكند على مسافة اربعين كيلومترا الى الجنوب الغربي من بخارى على نهر زرفشان وعلى الطريق التجـــاري المهم الذي يربط بخاري بمرو عبر مدينة آمل على جيحون (راجـــع الخريطة رقم ٤) •

وكانت من أهم المدن التجارية بين الصـــين وبحر الخـــزر وخراسان علاوة على انها منطقة زراعية اذ تقع في سهل بخـــارى الغني بمياه نهر زرفشان (ناثر الذهب) •

كانت المدينة محاطة باسوار ضخمة ومحمية بقوة كبيرة لذلك سميت كما يقـول غفوروف (المدينـــة ذات النطاق النحاسي) لكثرة دروع واسلحة الحرس على الاسوار •

٢ ـ تقدم قتيبة بقواته العربية معززة بقطعات المسلمين من خراسان وطخارستان والصاغنيان وكان فيهم نيزك طرخان حاكم بادغيس وحاكم بلخ وملك الصاغنيان • وكان التقدم يجري على طريق مرو ـ زم وهي الآن تسمى (كركي) (راجع الخريطـــة

رقم ٤) فعبر نهر جيحون من زم واتجه باتجاه شمالي غربي من جيحون قاصدا بيكند .

٣ ـ استعدت حامية بيكند للحصار ، بينما استنجد حاكم بخارى ، فجمع كل محاربي الصغد من دولته ومن الدول المجاورة له من الشاش واشروسنة وغيرها .

وعبثا حاول قتيبة اقتحام الاسوار ونظـرا لتفوق العـدو ومعرفة البخاريين لاراضيهم وطبيعتها فقد تمكنوا مع حلفـائهم الاتراك وقطعات الدول التي انجدتهم من تطويق الجيش العربي الذي كان يحاصر بيكند ، فقطعت كافة خطوط مواصلاته وبات في ضيق شديد وانقطعت اخباره عن الحجاج في الكوفة . فاقيمت الصلوات في مساجد العراق وايران يدعو فيهـا الناس لجيشهم بالسلامة (الفتوحات ١٨٠ وطاجكستان لغفوروف ٣٠٩ وتاريخ بخارى ٦٢) .

ويقول صاحب تاريخ بخارى (على ان قتيبة لم يجر في خاطره أي تفكير في الهرب بالرغم مما كان فيه من جـرح) . وحـاول البخاريون (الصغد) حمله على التراجع بعد هجمات شـديدة مستغلين تفوقهم الكبير بالعدد فلم يفلحوا بذلك .

ثم عمدوا الى الحيلة فقد أرشوا احد وكلاء قتيبة ، واسمه تنذر ، ليخبر قتيبة خبرا كاذبا ، وهو ان الحجاج قد مات وان واليا جديدا قد عين لخراسان بدلا من قتيبة وطلبوا منه ان يشيع ذلك في أوساط الجنود العرب . وعندما اخبر هذا قتيبة القى عليه

القبض فورا واعدمه لكي لا ينتشر الخبر فتضعف معنويات القطعات وهي في أوج المعركة واحرج وقت •

ويقول ارمانوس ڤامبرى صاحب كتاب تاريخ بخارى (ولم يفلح البخاريون بدورهم في حمله على الرجوع عنهم مع ما كانوا عليه من تفوق ساحق في العدد وما انطلقوا يذيعونه من الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله فتيلا تلقاء ما كان عليه قتيبة من شجاعة خارقة واقدام • واشترك الفريقان في قتال انتهى بهزيمة الترك ، ففر فريق منهم وقد ملىء رعبا في حين لاذ فريق آخر بمدينة بيكند الحصينة) راجع مخطط رقم (١) •

٤ ـ وحاول قتيبة دك أسوارها بقطعات الهندسة (الفعلة) لفتح ثغرات في أسفل الاسوار ، الا ان حامية المدينة طلبت الصلح فوافق قتيبة بعد ان حاصرها خمسين يوما •

وعين لها حاكما من قطعاته وهو ورقة بن نصر وعاد منسحبا الى مرو • وكان قتيبة قد وعد بمكافأة سخية لاول جندي يقتحم الثغرة في السور على ان تكون لاولاده ان استشهد وكان لذلك تأثير في اندفاع الجنود • وما ان ابتعد عن بيكند (٥) فراسخ أي (٣٠) كيلومترا حتى علم بتمرد بيكند وقتلهم لورقة بن نصر فاستدار نحو بيكند غاضبا (وهو من الذين اذا غضبوا لم يعرف لغضبهم حدود) فحاصر المدينة التي حاولت الصلح فرفضه قتيبة وأصر على اقتحامها فباشر بنقب اسوارها بفتح ثغرات فيه بواسطة (الفعلة) مع قصف بالمنجنيق حتى هدم اسوارها واقتحمها واباد حاميتها عن بكرة ابيها (راجع مخطط رقم ٢) •

وكان بين الاسرى الذين استسلموا قائد أعور وكان هو الذي استجاش الترك على العرب فقال لقتيبة (افدي نفسي بخمسة آلاف جريرة قيمتها الف الف) أي مليون درهم • فاستشار قتيبة الناس فقالوا (هذا زيادة في الغنائم وما عسى ان يبلغ كيد هذا) ، قال قتيبة (لا والله لا يروع بك مسلم ابدا فأمر به فقتل) •

ولما كانت حامية بيكند مدججة بالسلاح وفيها مخازن ومستودعات كبيرة للاسلحة ، حتى بلغ ما حصل عليه كل جندي عربي ما يكفي لتسليح ثلثمائة جندي جديد ، لهذا قرر قتيبة مصادرة الاسلحة وعدم اعتبار الاسلحة من الغنائم بل احتفظ بها في مستودعات السلاح لتسليح قطعات جديدة وتلك لاشك حكمة منه وبعد نظر واصالة رأي وبهذا زاد من القوة القتالية لجيشه •

كان سقوط المدينة بيد العرب ذا أثر بالغ ليس بالنسبة للعرب فقط بل في جميع بلاد ما وراء النهر اذ كانت تعتبر جوهرة ما وراء النهر وبلد التجار والتجارة الرائجة •

لقد حطم قتيبة أسوار بيكند واخضعها بقسوة لانها نكثت بالعهد ، ويبدو لي ان سبب قسوته مع المدينة وحاميتها مرده الى :ـ

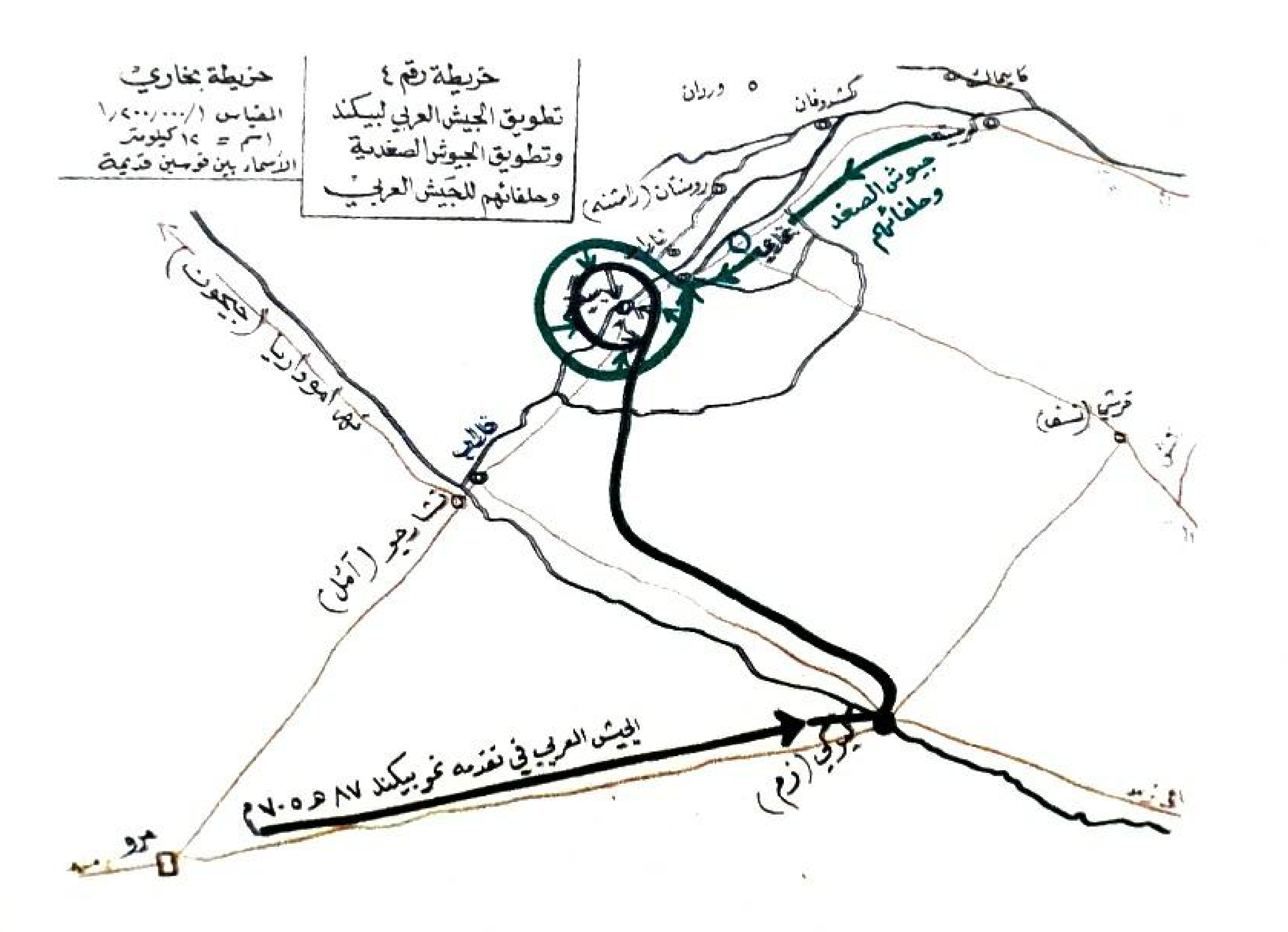
١ ـ انها نكثت بالعهد وتلك كبيرة في نظر الاسلام الذي جسد المفاهيم الاخلاقية والقيم والوفاء بالعهود •

٢ ـ ان جيش قتيبة كان قليل العدد وليس له طاقة بحصار المدن لمدة طويلة تجاه عدو يتفوق بالعدد عليه •

٣ ـ ان بيكند كانت أول المدن وان قتيبة يعرف جيدا انه سيتقدم في المستقبل نحو بخارى وسمرقند والشاش (طاشقند)

الخ ، فكيف يترك مدينـــة لها تلك الاسوار الضخمة عـــلى خط مواصلاته واذا تمردت واحتمت خلف الاســـوار تقطـــع خط مواصلاته وتحصره •

٤ ـ أراد ان تكون بيكند مثـــلا للآخرين ، واراد بتلك القسوة ان تكون مسموعة فلا يتمرد حاكم في المستقبل وذلك بعد نظر واصالة رأي اعطت نتائج رائعة فيما بعد •


خريطة بخاري
المقياس ١/٢٠٠/٠٠٠/١
١سم = ١٢ كيلومتر
الأسماء بين قوسين قديمة
خريطة رقم ٤
تطويق الجيش العربي لبيكند
وتطويق الجيوش الصغدية
وحلفائهم للجيش العربي
وردان
كشروفان
رومنان (رامثنه)
جيوش الصغد
وحلفائهم
نهر اموداريا (جيحون)
فرشي (نسف)
مرو
الجيش العربي في تقدمه نحو بيكند ٨٧ هـ ٧٠٥ م

معركة رامتنة

١ ـ بعد التجربة التي خاضها قتيبة في معركة بيكند ، ونظرا لتفوق الصغد وحلفائهم من الاتراك والاشروسنيين ، يبدو انه اتخذ قرارين مهمين في سير الحركات العسكرية وهما :

أ ـ ان يتقدم ببطء وحذر •

ب ـ ان يعزل بخارى ، وذلك باحتلال كل المدن والمواقع العسكرية المهمة المحيطة بها ، لكي تلاقي مصيرها لوحدها مستقبلا عندما يهاجمها •

٢ ـ وفي عام ٨٨ هجرية / ٧٠٦م ، تقدم الجيش العربي من مرو التي عاد اليها بعد معركة بيكند لقضاء الشتاء حسب العادة الجارية • وعبر اموداريا (جيحون) من زم ، ففتح نومشكت وكرمينية وهما الى الشرق من بخارى ثم تقدم الى رامتنة الكائنة شمال بخارى فاستسلمت دونما قتال وقبلت الصلح • فعاد الجيش العربي منسحبا من رامتنة (تسمى الآن رومنتان) راجع الخريطة رقم (٤) •

٣ ـ وكان أمير الصغد في بخارى قد استنجد بحكام الدول الشرقية من الاتراك والفرغانيين والاشروسنيين والايغوريين الصينيين ، فتقدم جيش عظيم من هؤلاء الحلفاء ، ذكر صاحب الفتوحات الاسلامية انه بلغ مائتي الف مقاتل معهم ابن اخت ملك الصين (الفتوحات ص ١٨١) •

فحصل جيش الحلفاء على التماس بمؤخرة الجيش العربي ، وكان على الساقة (مؤخرة المؤخرة) عبدالرحمن بن مسلم شقيق قتيبة ، ويبدو ان قائد المؤخرة قد وجـد ان من المستحيل على المؤخرة مقاومة ذلك السيل الجارف الذي يطارده ، فأبلغ قائده قتيبة وكان مع القسم الاكبر • ويبدو ان قتيبة قـد قام بتقدير موقف سريع ، وانه توصل الى قرار دخول معركة فاصلة ، بدلا من أن ينثر جيشه هباء على طريق الانسحاب ، وتجاه عدو متفوق تفوقا ساحقا بالعدد وغير متعب • لذلك أرى انه امر بما يلي :

أ ـ وقف انسحاب الجيش •

ب ـ الايعاز الى المؤخـرة بوقف الانسحاب والدخـول بمعركة لايقاف تقدم العدو •

ج ـ استدارة القسم الاكبر من جيشه لنجدة المؤخرة •

د ـ القيام بهجوم صاعق بكل قواته وبكل جرأة وجسارة ، على ان يقود الهجوم هو بنفسه ، يرافقه نيزك أمير بادغيس الذي كانت قطعاته تشترك في القتال مع الجيش العربي •

٤ ـ ويذكر صاحب الفتوحات الاسلامية (ص ١٨٢) ان العدو كاد أن يتغلب على المؤخرة التي كان يقودهـا عبدالرحمن بن مسلم ، الا ان ظهور قتيبة بنفسه في ميدان المعركة قد رفع من معنويات جيشه بشكل مثير ، ودارت معركة طاحنة حتى الظهر ، ابلى فيها قتيبة ونيزك وكل جندي عربي ومسلم بلاء حسـنا ، فتمكنوا من توجيه طعنات مميتة وضربات ساحقة لجيش الحلفاء ، مزقته شذر مذر فتراجعت فلولهم مذعورة نحو الشرق •



وبعد ان اعاد قتيبة تنظيم قطعاته استمر في انسحابه نحو مرو .

٥ – ويروي النخشري في كتابه تاريخ بخارى (ص ٧٢) ورواها ارمانوس فامبري في كتابه تاريخ بخارى (ص ٦٥) ان قتيبة استعمل الحيلة والمفاوضات لتفريق خصومه ، فقد ارسل حيان النبطي ويبدو ان حيان هذا كان مدير استخباراته ، لمقابلة طرخون ملك الصغد ، بما فيها بخارى موضحا له بانه اذا اندحر العرب وانسحبوا فان حلفاءه من الاتراك والشاش والتركستان الصينية بقيادة كورمغانون ابن اخت ملك الصين ، سوف يخلعونه من العرش وسيسيطرون على بلاده ، ومن الاسلم له ان يعقد صلحا مع قتيبة بحجة ان امدادات كبيرة قد وصلت لقتيبة ، وانه لا طاقة له بهم وانه قرر الانسحاب ، فسوف ينسحب الآخرون ، وهذا ما تم فعلا اذ انسحب ملك الصغد وباشر الآخرون بالانسحاب تباعا .

(قابل حيان النبطي طرخون وقال : لقد ذهب عنك الملك وانت لا تدري . قال . وكيف ؟ فقال : نحن نستطيع ان نبقى هنا مادام الجو حارا . والجو الآن بارد وقد آن لنا ان نرحل ، وما دمنا هنا فان هؤلاء الاتراك يحاربوننا ، فاذا ما ذهبنا من هنا يحاربونك لان ولاية الصغد مكان جميل ولا مثيل له في الدنيا جمالا . فكيف يتركون لك الصغد ليرحلوا الى التركستان ؟ وتبقى في عناء ويأخذون ملكك .

فقال طرخون : وما حيلتي ؟ قال : تعقد صلحا مع قتيبة وتعطيه شيئا ، وتظهر للترك بانه قد وصل لنا جيش عظيم عن طريق كش ونخشب مددا من الحجاج • وتقول لهم اني عائد ليعودوا هـم أيضا • فاذا ما عقدت معنا الصلح ، واخذت منا العهد ، لن نريد بك سوءً ، ولن نؤذيك ، وتخرج انت من هذا العناء •

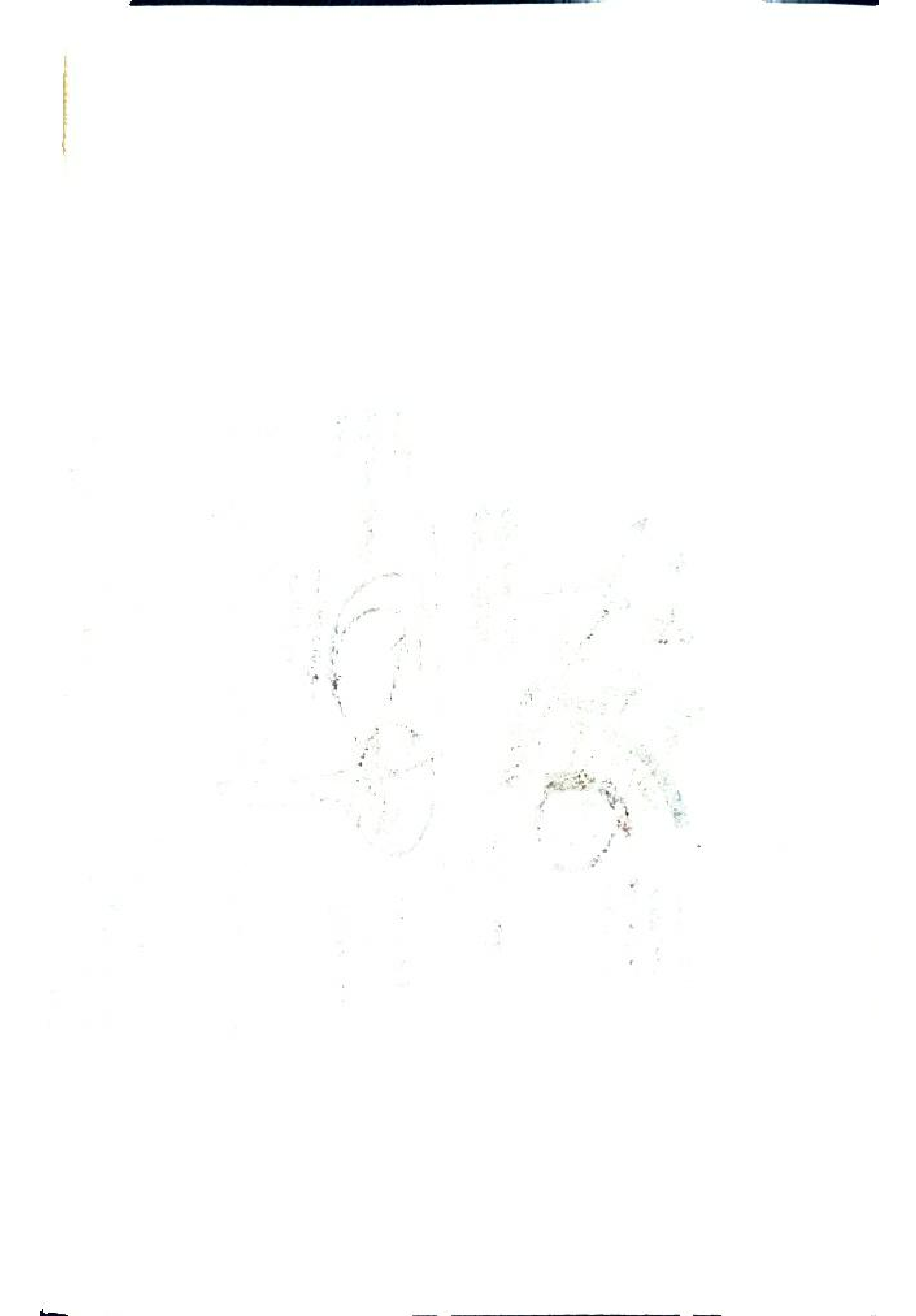
فقال طرخون ، لقد أحسنت نصحي ، فلأفعل هكذا ، سأعود الليلة • فلما اقبل الليل بعث طرخون بشخص الى قتيبة ، واصطلح وارسل مالا قدره الفا درهم ، ونفخوا في البوق وذهبوا ، فقـال الدهاقين والامراء ، ماذا حدث ؟ فقال : حذار ، تنبهوا ، فقد بعث الحجاج بعسكر عظيم من ناحية كش ونخشب ليأتوا من خلفنـا ويحيطوا بنا ، واني عائد الى ولايتي • فبعث كورمغانون التركي بشخص وسأل الخبر فاخبروه بهذه الحالة ، فنفخ هو ايضا في البوق وعاد ، وكانوا ينهبون الولاية ويمضون ، فصرف الله تعالى هذا البلاء من المسلمين ••) •





١ – في المخطط رقم (١) نلاحظ تطويق الجيش العربي لبيكند وهجومه على جيش الحلفاء، الصغديين والأتراك ثم انسحاب الحلفاء، ومواصلة الجيش العربي لمطاردتهم ودحرهم نهائيا الى الشرق من بيكند .

٢ – في المخطط رقم (٢) نلاحظ عودة الجيش العربي من المطاردة والترابه حول اسوار بيكند وقبول بيكند للصلح وما ان ابتعد قتيبة ٣٠ كيلومترا الى الجنوب حتى نكثت بالصلح وقتلت الحاكم العربي وحاميته فاستدار اليها قتيبة فطوقها وفتحها بعد دك اسوارها .



معركة بخارى

١ ـ معركة وردان الاولى

في سنة ٨٩ هجرية / ٧٠٧ م كان قتيبة قد عزل بخارى بعد ان اخضع في السنة الماضية المناطق المحيطة بها ، فاستلم وصايا الحركات من الحجاج بن يوسف الثقفي ، قائد الجبهة الشرقية ووالي العراق، بالتقدم نحو وردان الكائنة الى الشمال من بخارى، راجع الخريطة رقم (٤) •

فتقدم قتيبة بجيشه نحو وردان ، الا ان النفير العام الذي أعلنه حاكم بخارى وجموع الحلفاء الصغديين وغيرهم قد تجمعوا لصده في خرقانة السفلى على يمين وردان ، ويبدو انها منطقة كشدوفان راجع الخريطة رقم (٤) • ومع ذلك فبعد قتال شديد دام يومين وليلتين تمكن الجيش العربي من دحرهم ، الا انه لم يتمكن من التغلب على وردان خداه (ملك بخارى) الذي تحصن في مدينة وردان ، فعاد منسحبا الى مرو حسب العادة الجارية لاعادة التنظيم • ويبدو لي ان كثرة الخسائر والانهاك الذي اصاب الجيش في المعارك التي خاضها ضد الصغد وحلفائهم في خرقانة السفلى ، هي التي منعته من تحطيم وردان •

٢ ـ الاستعداد لمعركة وردان الثانية وفتح بخارى

أ ـ والظاهر ان القائد العام للجبهة الشرقية في الكوفة (الحجاج) قد أزعجه نبأ انسحاب جيش المشرق دون احتلال وردان ، فطلب مزيدا من المعلومات من قتيبة مع خريطة لميدان

الحركات . فتذكر كل كتب التاريخ ان الحجاج طلب من قتيبة في رسالته (أن صورها ، فبعث بصورتها) راجع الفتوحات ص ١٨٣. ومن المعلوم ان البريد كان يصل من محمد بن القاسم في الهند كل ثلاثة أيام (الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٨٢) . ولا يمنع ان يكون كذلك بين قتيبة والحجاج .

ب ـ استلم قتيبة جوابا لرسالته ، وفيها وصايا الحركات الجديدة من الحجاج . وفيها (أن تب الى الله جل ثناؤه مما كان منك ، وائتها من مكان كذا وكذا ، وكتب اليه أن كش بكش ، وانسف نسف ، ورد وردان ، واياك والتحويط ، ودعني وبنيات الطريق) راجع الفتوحات ص ١٨٢ .

وواضح من هذه الرسالة أن الحجاج يلوم قائد جيش المشرق ، (تب الى الله جل ثناؤه مما كان منك) أي انسحابك قبل القضاء على ملك بخارى المسمى وردان خداه .

وانه ينصح بأن تبدأ الحركات بتطهير منطقة مدينة كش (شهر سبز الحالية) (كش بكش) لاحظ الخريطة رقم (٢) ، حيث تقع كش الى الشرق من مدينة نسف . وتدمير مدينة نسف (قرشي الحالية) ، ثم هاجم مدينة وردان (ورد وردان) ، واتتبه وخذ الحذر ضد التطويق (واياك والتحويط) . واسرع نحو أهدافك بخط مستقيم وتجنب عطفات الطرق (ودعني وبنيات الطريق) ويبدو لي ان الغرض هو تطهير كل المناطق الكائنة جنوب بخارى وجنوب وادي نهر زرفشان ، واعتبارها مناطق امينة قبل الزحف على بخارى .

ج - (المعركة) تقدم قتيبة بجيشه عام ٩٠ هجرية/٧٠٧م فتمكن من تطويق بخارى ووردان ،الا ان جموع الصغد وحلفائهم التي قد تجمعت في ميدان المعركة لنجدة بخارى حسب استغاثة وردان خداه (الملك وردان) ،قد شجعت حامية بخارى على الخروج من الطوق ، فدار اعنف قتال شهدته المعركة بين الجيش العربي وحلفاء بخارى. ويبدو ان قتيبة الذي كان يصول كالاسد الهصور ، قد حاول دحر الحلفاء بهجمات متتالية دونما طائل ، لذلك قرر ان يقدم الفرقة الازدية (قبيلة الازد اليمانية) ، مستفيدا من النخوة والعصبية القبلية التي تجعلهم ينشدّون الى بعضهم البعض فقاتلت الفرقة الازدية قتالا ضاريا بهجمات متتالية الا انها فشلت في تحقيق أهدافها وبعد ان لاحظ التعب عليها وتراجعها حتى المنطقة الادارية حيث النساء والاحمال فقامت النسوة العرب بدور بطولي في توبيخ الجنود وضرب وجوه الخيل ، فأوعز قتيبة للفرقة الازدية بمواصلة القتال ريثما دفع بكتائب الخيالة العربية بحركة احاطة من الجانبين (حركة كماشة) فأثرت الاحاطة الراكبة هذه على الموقف فتراجع الحلفاء الى مرتفع عبر نهر زرفشان .

وهنا ارى انقتيبة قدالقى بكل ثقله بالايعاز الى الفرقةالتميمية (قبيلة بني تميم) بالتقدم وعبور النهر وتأسيس رأس جسر وازاحة المقاومة الصغدية على التل .

وقال (يابني تميم يوما كأيامكم) اي قاتلوا اليوم واجعلوه يوم نصر كانتصاراتكم السابقة فتقدم قائد الفرقة وكيع بن حسان بن

قيس التميمي وكان قائد كتيبة الخيالةفي الفرقة هريم بن ابي طلحة .

تمكنت الفرقة من دفع العدو الى ماوراء النهر ثم امر وكيع بنصب جسر من خشب على الزرفشان وقال (من وطن نفسه على الموت فليعبر) ومن يجبن فليبق مكانه . فعبر الفرسان العرب النهر فدارت معركة عنيفة صمد فيها الصغديون والاتراك .

ولأزالة المقاومة طلب قائد الفرقة من هريم قائد الخيالة القيام بحركة احاطة للموقع ريثما يتهيأ له مهاجمته من الجبهة بغية اشغال العدو وجلب انتباهه لحركة الاحاطة والتطويق . فدار قتال عنيف على المرتفع وقائد الجيش قتيبة يراقب الموقف عن كثب فانهزم العدو متراجعا بغير انتظام ولكي يضرب القائد ضربته الحاسمة أوعز قتيبة بمطاردة شديدة للعدو بل (نادى قتيبة من أتى برأس فله مائة فأُتي برؤوس كثيرة) (الفتوحات ص ١٨٣) . ويقول غفوروف انه تجمع لديه هرم من الرؤوس . وجرح يومئذ خاقان وابنه اي الملك وولي العهد[١] .

والظاهر ان الملك طلب الصلح لمدينة بخاري فوافق قتيبة الا انه كما يذكر البلاذري (ص ٥١٧) أصر على دخولها لكي يصلي فيها ركعتين (دعوني ادخلها فاصلي بها ركعتين) (فاذنوا له في ذلك) وكان قتيبة قد أعدَّ كمينا لكي يهجم على الباب فور فتحها له ، واذا ما تغلب الكمين على حرس الباب فانه سيأخذ المدينة عنوة .

---

(١) فانشأ نهار بن توسعة يقول في ذلك ابياتا مطلعها :

لعمري لقد فازت تميم بذكرها   وسائر احياء العراق وقوف

(كتاب الفتوح لابن اعثم ٧ : ٢٢٠) .

وفعلا بعد ان فتحوا الباب هاجمها الفرسان العرب وتغلبوا على الحرس وكان قتيبة وسط المعمعة فدخل بخارى فاتحا وحصل فيها على غنائم كثيرة ساعدته على اعداد قوات جديدة في معاركه المقبلة . وان موقفه هذا في تعريض نفسه للمخاطر عند الباب ليدل دلالة واضحة على شجاعته واقدامه وعقليته التي تستعمل الحيلة والخداع كما يدل على تماسه بقطعاته فلا يأبه ان يكون في الصفوف الاولى من جنوده .

وحسب العادة المتبعة في اعادة التنظيم واراحة الجيش قبل حلول الشتاء عاد قتيبة الى قاعدته مرو[1] .

---

(١) وفي ذلك قال المغيرة بن حبناء التميمي يمدح قتيبة بقصيدة مطلعها :

عفت الديار بسفح طود شمام الا بقية أثلب وثمام

(الفتوح لابن اعثم ٢٢٤:٧) . ورواها الطبري ٧٨/٨ :

لمن الديار عفت بسفح سنام الا بقية أبعد وثمام

مطاردة نيزك ملك بادغيس

بعد معركة بخارى عاد الجيش ، وعند الوصول الى آمل استأذن نيزك طرخان ملك بادغيس في العودة الى طخارستان ، فأذن له قتيبة الا ان نيزك تمرد عند وصوله الى بلاده ، فأرسل قتيبة أخاه عبدالرحمن بن مسلم في ١٢ الف مقاتل لاعادة فتح بادغيس وبلخ والطالقان ، فتقدم عبدالرحمن وتبعه قتيبة بعد انقضاء الشتاء فأعاد فتح البروقان والجوزجان والطالقان وكلها من الولايات الكائنة الآن في شمال افغانستان ، وظل عبدالرحمن على مقدمة جيش قتيبة ، يطارد نيزك وجيشه من واد لآخر حتى تحصن نيزك في الكرز ، وكان مضيق الكرز من الوعورة بمكان ، اذ ليس له الا طريق اقتراب واحد اغلقه نيزك بقوة ، وهنا بدر لقتيبة ان يستدرج نيزك بالحيلة والخداع ، وان مراوغا وناكثا كنيزك تجوز وتحل معه الحيلة والخداع . فدعا قتيبة احد وكلائه وكان صديقا لنيزك ، واسمه سليمان الناصح ، فطلب منه ان يتصل بنيزك ويستدرجه على ان لا يعطيه الامان ، أما اذا أصر على طلب الامان وأبى ، فلابأس من اعطائه الامان . وقال قتيبة لسليمان (واعلم اني ان عاينتك وليس هو معك صلبتك) .

وارسل مع سليمان الناصح جنودا من خيرة الفرسان ، استعملهم سليمان ، بعد أن استدرج نيزك للصلح ، وأمنه ، في عزل

نيزك عن جنوده بغلق مدخل المضيق • وجلب نيزك الى قتيبة ، ومع ذلك لم يقتله قتيبة ، بل كتب يستأذن الحجاج بقتله ، فجاءه جواب الحجاج بالموافقة طبعا ، ليكون مثلا لكل مرتد وناكث بالعهد • ولو تساهل قتيبة في ذلك لكانت هناك أمثلة عديدة تشابه في سلوكها سلوك نيزك الناكث[1] •

(١) قال نهار بن توسعة يمدح قتيبة في قصيدة منها : (ابن أعثم ٧:٢٣١) :

اصبت ووفقت ابن عمرو ولم تزل
على كل حال قد توفق للرشد
قتلت عدو الله نيزك بعدما اتى وجنود المسلمين على حفد
فكم ثم كم من غمرة قد عقرتها وكم عاند في القوم قومت للقصد
وكم مقتر أنعشته يا ابن مسلم وأعطيته الآمال في طلب الحمد
وكم من عظيم البال يحتال في الوغى
نزلت صريعا للدرين وللحد
وكم بائس أغنيته بعد عيلة فأصبح ذا مال كثير وذا لبد
ومن متلد دغدغت بالسيف ماله وقدما قديما كان يأوى الى صفد

توطيد الأمن جنوب جيحون وأحـرون

لقد قضى قتيبة عامي ٩١ هـ و ٩٢ هـ في توطيد الامن في افغانستان بعد الفتن التي اثارها نيزك . وبعد امتناع ملك شومان من دفع الجزية ففتح قتيبة شومان ثانية وهي القسم الجنوبي من طاجكستان ، كما عقد الصلح مع الملك رتبيل الاعظم في سجستان . واخمد تمرد مدينتي كش ونسف ، ووطد الامن تماما في كل بلاد ما وراء النهر بين جيحون ووادي زرفشان .

التقدم نحو خوارزم

١ ـ تقع دولة خوارزم غرب اموداريـا (جيحون) ، والى الجنوب من بحيرة أورال ، وهي تجاور مملكة بخارى من الشمال الغربي ، ولا يفصلها عنها سوى نهر جيحون نفسه •

وتجمع كافة المصادر التاريخية على انه كان لملك خوارزم شاه أخ اسمه خورزاد ، وانه كان يتحكم في الامور ، وقد طغى وتجبر وعاث فسادا في خوارزم ، ولم يكن خوارزم شاه قادرا على ردعه ، وقد جرت مراسلات بين قتيبة وخوارزم شاه اظهرت دهاء قتيبة وسعة حيلته •

وقد جرى الاتفاق السري بين الاثنين على ان يقضي قتيبة على الملك خام جرد ، الذي كان يعادي ملك خوارزم ويغزوه باستمرار، وان يقضي في نفس الوقت على شقيقه خورزاد ، ومقابل ذلك يسمح ملك خوارزم لقتيبة بدخول مملكته ، والاتفاق على صلح ، يكون خوارزم شاه بموجبه حليفا للعرب •

٢ ـ وفي سنة ٩٣ هجرية / ٧١١ م تقدم قتيبة من مرو وعبر جيحون ، وقد اشاع انه يهدف الى التقدم نحو الصغد (سمرقند)• وقد ساعد على ذلك ما تحدث به ملك خوارزم لشعبه ، ان قتيبة يريد الصغد وليس خوارزم • وما هي الا عدة ايام حتى استدار قتيبة بجيشه نحو الغرب فوصل الى مدينة هزارسب على جيحون ، فاستشار خوارزم شاه اعوانه عما يجب ان يفعله ، فأشاروا عليه

بالحرب ولكن خوارزم شاه الذي كان قد اتفق سرا مع قتيبة على هذه الخطة ، اجابهم (لكني لا أرى ذلك ، لانه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ، ولكني اصرفه بشيء أؤديه اليه ، فأجابوه الى ذلك) .

فسار ملك خوارزم بجيشه الى مدينة الفيل ، وهي احصن بلاده والمواجهة لمدينة هزارسب التي فيها قتيبة ، واتفقا على ان يدفع الخوارزميون عشرة آلاف رأس غنم على ان يعين قتيبة خوارزم شاه ملكا على مملكة خام جرد عدوه .

ولما كان خورزاد قد التجأ الى خام جرد ، فقد ارسل قتيبة قطعات بقيادة أخيه عبدالرحمن بن مسلم فقضى على جيش خام جرد ، وعاد بأربعة آلاف أسير بينهم شقيق خوارزم شاه . فدفع قتيبة بالاسرى الى الملك الخوارزمي الذي قتلهم جميعا بما فيهم خورزاد ، ودفع بأموالهم وأسلحتهم الى قتيبة . وولى قتيبة أخاه عبدالله بن مسلم حاكما على خوارزم[1] .

---

(١) ذكر ابن اعثم في كتاب الفتوح (٧:٢٣٩) كتاب الحجاج التالي الى قتيبة بعد النصر في خوارزم ويوافق على مقترح قتيبة بالتقدم نحو سمرقند « اما بعد فاني لست بآئس اذ فتح الله علينا وعليك خوارزم . واغنمنا اموالها وخزائنها وغنائمها . ان يفتح الله عليك وعلينا ما بعدها . وقد بلغني انك تريد المسير الى سمرقند . وانا انشدك ان غزوت بالمسلمين . وانا اسأل الله ان يعز نصرك وان يحسن عاقبتك . وان يمدك بالملائك المردفين . وان يرعب قلوب أهل سمرقند . وان يخالف بين كلمتهم . وان يلقي بأسهم بينهم . وان يورثنا ارضهم وديارهم واموالهم . وان يجعل دائرة السوء عليهم . انه على كل شيء قدير . والسلام عليك ورحمةالله وبركاته » .

ويبدو لي ان حركة قتيبة هذه ، لم تكن لمجرد تثبيت نظام خوارزم شاه ، ولكن من أجل :

أ ـ توطيد الامن والنظام بشكل حاسم في شمال جيحون •

ب ـ الحصول على حلفاء جدد لشد أزر الجيش العربي في هجومه المقبل على سمرقند •

جـ ـ تدمير معنويات الدول الاخرى التي ستجابهه في المستقبل ، واشعارهم بانه ازداد قوة على قوته ، وان من الاسلم لهم الاتفاق معه وليس مقاومته •

معركة سمرقند

١ - كانت سمرقند تشكل أمنع حصون الصغد وأقوى المدن الحصينة في بـــلاد ما وراء النهر • وكان ملكها غورك قــد استولى على الحكم بعد مقتل أو انتحار ملكها تارخون الذي سبق ان قبل بالصلح مع العرب ، بينما آوى الامير ديفاشتيج أولاد الملك القتيل ولقب نفسه بلقب قيصر الصغد وكان يميل للعرب ويعارض غورك •

ويبدو ان الوضع السياسي في سمرقند كان على درجة كبيرة من الاضطراب ، فاستغل القائد الداهية ذلك ، واغتنم هذه الفرصة للتدخل في شؤون سمرقند الداخلية ، وبشكل ماكر ومحسوب كما يعبر عنه غفوروف ، بحجة مساعدته لابناء حليفه تارخون ، ولكي يثأر له ، وصـــار يساند ديفاشتيج ، فكسب بذلك عطف الكثير من رجالات سمرقند (غفوروف : طاجستان ص ٣١٢) •

٢ - وبعد نجاح خطته في خوارزم فكر جديا فيما اشرت اليه اعلاه ، وانه حان الوقت لكي يندفــع من خوارزم نحــو سمرقند • وبينما كان يقوم بتقدير للموقف دخل عليه في خيمته أحد قواده ، وهو المجشر[1] بن مزاحم السلمي ، فقال له كما يروى صاحب الفتوحات الاسلامية ص ١٩٥ (ان اردت الصغد يوما من

---

(١) ذكره ابن اعثم في الفتوح (٢٣٨:٧) بصورة (المجسر) •

الدهر فالآن ، فانهم آمنون من ان يأتيهم عامل ، وانما بينك وبينهم عشرة أيام)(١) وتفسير هذا القول هو اذا أردت أن تهجم على سمرقند فان احسن حال مواتية هي الآن ، فانهم آمنون ولا يتصورون انك تهاجمهم بعد حصولك على غنائم كثيرة من خوارزم ، فدعنا نبدل اتجاه مسيرنا وتتقدم على سمرقند ، سيما وان المسافة بيننا وبينها مسيرة عشرة أيام لا غير . فذعر قتيبة وهو القائد الداهية الذي اشتهر بالكتمان والخديعة . فقال لمجشر (أأشار عليك بهذا احد) قال لا ، قال قتيبة (أفسمعه منك احد) قال مجشر : لا . قال قتيبة (والله لئن تكلم به احد لاضربن عنقك) . اذ انه كان يفكر نفس التفكير وقد توصل الى نفس الخطة ، وفي اليوم التالي باشر بتطبيق الخطة التالية :-

أ - فرز قوة كبيرة من الخيالة والرماة بقيادة عبدالرحمن ابن مسلم وبعث بكل الاحمال والاثقال معه .

ب - يسير عبدالرحمن طيلة النهار والليل الذي يليه ، وفي صباح اليوم التالي عليه ان يدفع بالاحمال والاثقال والغنائم الى مرو ، بينما يستدير نحو الشرق بكتائبه والتقدم نحو سمرقند .

ج - لم يبلغ حتى أخاه عبدالرحمن بالاستدارة نحو الشرق ، وانما ابلغه ذلك برسالة ليلا فيما بعد ، قائلا (اذا أصبحت فوجه

---

(١) ذكرها ابن اعثم في الفتوح (٧:٢٣٨) كما يلي « ايها الامير ! ههنا سر بيني وبينك ! قال فتنحى معه ناحية ثم قال : هات ما عندك . فقال ان اردت السغد يوما من الدهر فاليوم ، فانه ما بينك وبينه الا مسيرة عشرة ايام ... الخ » .

الاثقال الى مرو ، وسر بالفرسان والرماة الى الصغد ، واكتم الاخبار ، فاني في الاثر) وذلك يدل على شدة تكتمه وحذره .

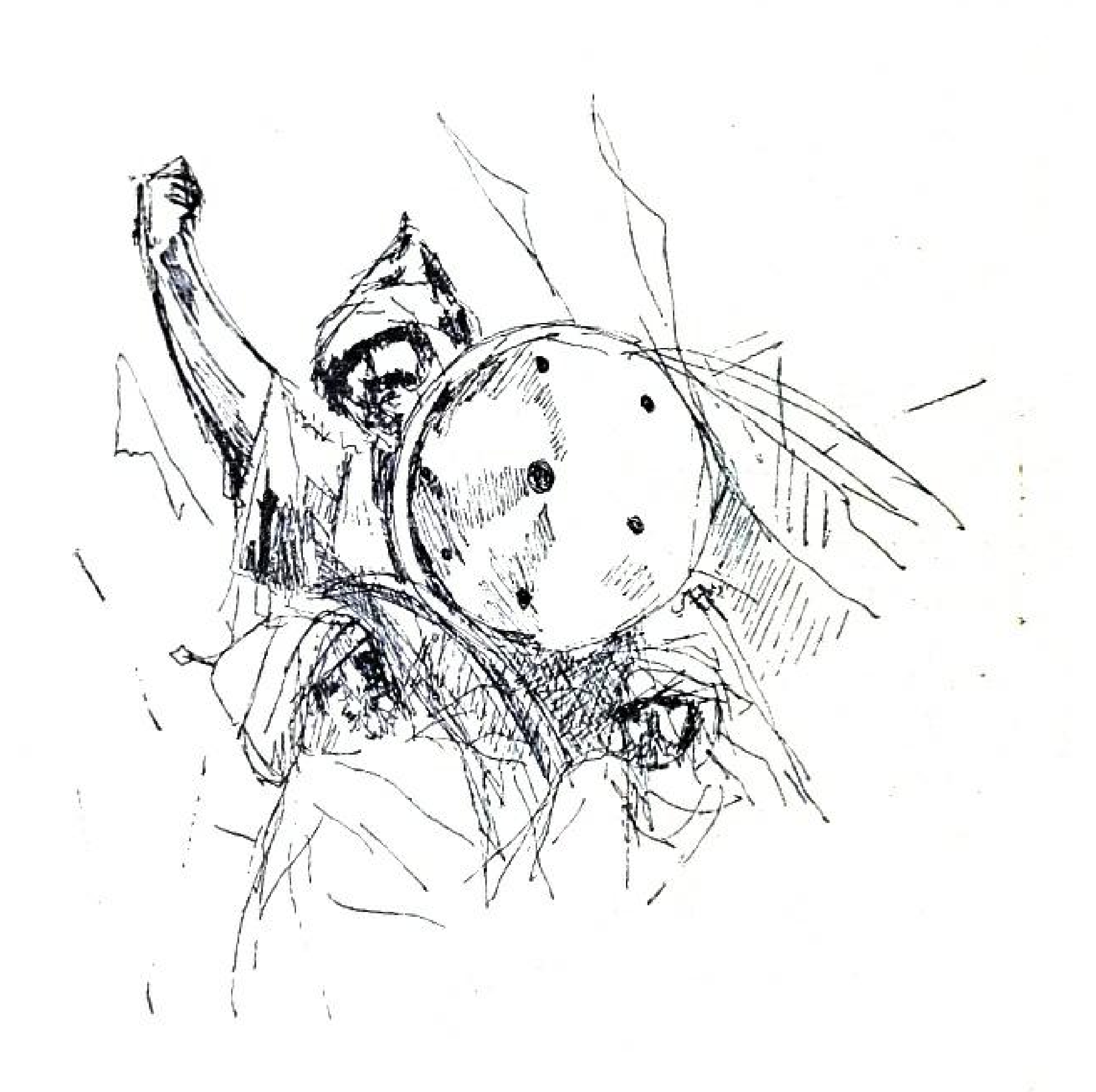
د ـ يتحرك القسم الاكبر الذي فيه قتيبة وراء كتائب خيالة عبدالرحمن ، وكان مع جيش قتيبة قطعات من قوات بخارى وخوارزم .

٣ ـ جمع قتيبة قطعاته والقى فيهم خطابا اوضح فيه ان بلاد الصغد شاغرة ، وانهم قد نقضوا العهد ونكلوا بالحامية العربية ، وانه قد عزم على فتح سمرقند . ثم تقدم وراء عبدالرحمن فوصل الى سمرقند بعد حصول عبدالرحمن على التماس بحامية سمرقند الصغدية بثلاثة أيام ، ويبدو ان المدينة قررت قبول الحصار فحاصرها قتيبة شهرا .

المعركة

١ ـ على اثر تقدم قتيبة بجيشه العربي يسانده ملك خوارزم وملك بخارى نحو سمرقند ، كتب غورك ملك سمرقند الى الدول التركية المجاورة ، وهي الشاش (عاصمتها طاشقند) وأشروسنة وفرغانة وتحصنت الحامية التركية وراء أسوار سمرقند الحصينة ، وكان ذلك عام ٩٣ هجرية / ٧١١ ميلادية .

٢ ـ حاول قتيبة اقتحام المدينة عدة مرات الا انه كان يصطدم بمقاومة عنيفة ، وقد بذل الطرفان جهدا جبارا في الصراع الدامي من أجل النصر ، لان كلا الطرفين كان يعتبر معركة سمرقند حاسمة ، وقد دام حصار قتيبة للمدينة شهرا



كاملا ، تمكنت خلاله النجـــدات التركية من الشاش وأشروســـنة وفرغانة من الوصول الى ميدان المعركة •

٣ ـ انتخب الفرغانيون والشاشيون والاشروسنيون خيرة جنودهم وفرسانهم والمعدودين من ابطالهم ، وكان من بينهم أبناء الملك والامراء وولوا قيادة جيش النجدات هذه للابن الاصـــغر لخاقان الترك واسمه اينيل خاقان ، تقديرا منهم ان المعركة حاسمة ولابد من الانتصار فيها • وكان من المعروف لديهم ان الواحد من هؤلاء الفرسان يعد بمائة فارس •

٤ ـ عندما بلغ قتيبة نبأ النجدات باتجاه سمرقند لفـــك الحصار عنها (ويبدو لي ان لحسن تنظيمه للاستخبارات دخـلا كبيرا في حصوله على المعلومات عن حركتهم مبكرا) أنصرف ،لاشك ، الى دراسة الموقف العسكري مجددا ، وعلى ضوء الظروف الجديدة والقوى الكبيرة التي ستدخل ميدان الصراع ، ويبدو انه توصل بعد تقدير سليم للموقف الى ما يلي :ـ

أ ـ منع وصول النجدات الى ميدان المعركة •

ب ـ اشغال النجدات قبل وصولها بكمين ليلي ، ريثمـــا يتسنى له سحب قطعاته من حوالي أسوار سمرقند ، والقيـــام بحركة خاطفة ليلية للقضاء على ارتال النجدات في معركة ليلية ، في الوقت الذي يكون الكمين قد اوقف تقدمها •

٥ ـ وتطبيقا للخطة أعلاه انتخب قتيبة ستمائة فارس من خيرة فرسان العرب ، وشكل منهم كتيبة بقيادة أخيه صالح بن

مسلم . وقد امر قتيبة صالحا ان يتقدم على الطريق ويكمن على مسافة ١٢ كيلومترا (مسافة فرسخين) ، وان يقطع رتل النجدات بهجوم ليلي مباغت وبصولة يخلع بها قلوب الشجعان (لاحـــظ المخطط رقم ٣) .

٦ ـ تحرك صالح وكتيبته ، وقرر صالح بعـــد استطلاع المنطقة الكائنة شرقي سمرقند وعلى طريق سمرقند ـ طاشقند ، تقسيم الكتيبة الى كمينين ، احدهما يمين الطريق والآخر يساره ، ولابد انه انجز كل ترتيبات المعركة ، من تعيين آمر كل كمـين وتوقيت واشارة الهجوم والارتباط ... الخ . وانتظر وصول الرتل المعادي . (لاحظ المخطط رقم ٣) .

٧ ـ بعد ان وصل الرتل المعادي واجتاز منطقة الكمينين لمدة مناسبة ، باشر الكمينان بهجوم صاعق ليلا ، ارعب رتل العـــدو بمباغتة تامة ونشر الفوضى في صفوفهم ، وصار فرسان العرب يحصدون عدوهم حصدا في هجوم اتصف كما يبدو لي بكـــل معاني العزم والنجدة والشهامة ، اذ كان كل فارس في الكتيبـة يعرف أهمية هذه المعركة ، ويدرك مدى خطورة وصول هـــذه النجدات الى سمرقند . وحسب الخطة التي وضعها قتيبة ، سحب أكثر قطعاته من وراء أسوار سمرقند بسرية وكتمان شديدين كي لا تشعر به حامية المدينة ، فتخرج من الاسوار وراءه ، لتخفيف ضغطه على رتل النجدات ، فشن هجوما صاعقا على جبهـــة رتل العدو الذي قطعه الكمين ، فدارت أشرس معارك ما وراء النهر في تلك المعركة الليلية (لاحظ المخطط رقم ٣) .

وينقل صاحب الفتوحات الاسلامية في الصفحة ١٩٦ وصفا لاحد الضباط العرب في الكمين ، (قال بعض أصحاب صالح ، انا لنقاتلهم في الليل اذ رأيت قتيبة وقد جـاء سرا ، فضرب ضربة اعجبتني ، فقلت كيف ترى بأبي وأمي ، قال اسكت فض الله فاك • ثم قاتلوهم اشد قتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم الا الشريد ، وحوينا اسلابهم وسلاحهم واحترزنا رؤوسهم واسرنا منهم اسرى ، فسألناهم عمن قتلنا ، فقالوا ما قتلتم الا ابن ملك أو عظيما أو بطلا ، كان الرجل منهم يعد بمائة) • ويروى غفوروف نقلا عن مصادر ووثائق قديمة وصغدية (ولكن بفضل الاستخبارات الجيدة استطاع قتيبة مبكرا معرفة تحـرك هذه القوات ، فأرسل لملاقاتها قوات مختارة بقيادة شقيقه ، ونصب العرب كمينا وقع فيه حلفاء الصغد الذين لم يشكوا في شيء ، ولقد تم في هذه المعركة تحطيم القوات التي كانت مسرعة لمساعدة غورك • وعرف العرب بان القوات المدمرة تتكون من عسكريين وجهاء • وبعد ان قطعوا رؤوس القتلى كتبوا اسماءهم على آذانهم وعلقوها بحازمهم ، وهكذا عادوا الى معسكرهم) •

وحدث عربي شارك في الاحداث فقال (ولم يكن بيننا ولا عربي واحد ما لم يكن قد علق بحزمه رأس أحد الاعداء المعروفين، لقد أخذنا أسلحة رائعة وأقمشة ثمينة ومحازم ذهبية وخيول رائعة ولقد اهدانا قتيبة ذلك كله) •

٨ – وبعد ابادة رتل النجدات ابادة تامة عاد مسرعا كالاسد الهصور الى أسوار سمرقند ، وقرر ان يدكها ويقتحم المدينة مهما

كلف الامر •

ويذكر غفوروف في كتابه طاجكستان نقلا عن وثائق صغدية وصف غورك نفسه للحصار العربي •

(عند ذاك حاصر العرب المدينة ، انهم وضعوا تجاه الجدران ثلثمائة ماكنة لتحطيم الجدران ، وحفروا في ثلاثة أماكن خنادق كبيرة ، انهم أرادوا ان يحطموا مدينتنا وقيصريتنا) ونفهم من وصف الملك غورك لذلك ان قتيبة قد حشد أكبر عدد سمع عنه من المنجنيقات (المدفعية) لدك أسوارها كما قام الفعلة (الهندسة) بالحفر تحت الاسوار لمساعدة المنجنيقات في تحطيمها •

ويبدو لي ان عدد المنجنيقات مبالغ فيه لتبرير الاستسلام والفشل •

فاذا عرفنا ان منجنيقات الجيش العربي في ذلك الوقت كانت تدار بعدد كبير من الجنود وصل بعضها الى خمسمائة جندي لتشغيل منجنيق العروس الذي كان مع محمد بن القاسم في الهند (راجع الجندية في الدولة العباسية للمرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت المنقول عن صبح الأعشى ج ٥ ص ٦٤) • اذا عرفنا ذلك ادركنا ان لو كان معدل الرجال مائة مع كل منجنيق فمعنى ذلك ان عدد رجال المنجنيقات لوحدهم كان يربو على ٣٠ ألف جندي وهو عدد لا يصدق اذ ان مجموع الجيش العربي لم يكن يصل الى خمسين ألف جندي اطلاقا • وبعد ان ادام عليها قتيبة قصفا مستمرا ليلا ونهارا مع العمل الهندسي لاحداث ثغرات في الاسوار، دفع بقطعاته من رماة السهام والنبال للتقرب من الثغرات لتغطية

هجوم المشاة ، فاقتحم المدينة بعاصفة من الجنود العرب الاشاوس. فسقطت المدينة واستسلم غورك ، ولكن حكمة قتيبة وبعد نظره ، قادته الى ابقاء غورك حاكما على الصغد[1] ، وفق الشروط التالية :

أ ـ تسليم ٣ آلاف رهينة .

ب ـ دفع ٢٠٠ ألف درهم سنويا .

ج ـ تسليم كنوز معبد النار .

د ـ حطم قتيبة بنفسه هياكل المجوس . ونظرا لانه لم يمسه شيء فقد آمن عدد كبير منهم بالاسلام .

هـ ـ ابقاء حامية عربية داخل سمرقند .

و ـ تعيين حاكم عربي للمدينة .

ز ـ تجريد المدينة من الاسلحة العسكرية .

ح ـ ان يبني في سمرقند مسجدا سماه مسجد قتيبة .

٩ ـ ولبعد نظر القائد قتيبة بن مسلم ، واصالة رأيه ، فانه اتخذ عدة اجراءات ادارية في سمرقند لكسب الرأي العام ، وتسهيل انتشار الاسلام ، واستئصال المجوسية نهائيا ومن هذه الاجراءات :

(١) وفي ذلك قال الشاعر الفرات بن عبدالله السني (٢٤٦:٧ من الفتوح لابن اعثم) :

يرى الموت من عادى قتيبة مجهرا — وليس بوقاف ولا بمواكل
ولكنه سمح بنفس كريمة — يصول بها يوم القنا والقبائل
فما لأبي حفص يزيد اذا سما — بارعن مثل الطود جم الصواهل
حوى السغد حتى شاع في الناس ذكره — ونال التي اعيت على المتطاول
ونال التي قد رامها الناس قبله — فاعيوا وامسى ذكره غير خامل

أ ـ السماح بقراءة القرآن باللغة الفارسية تيسيرا للناس (راجع تاريخ بخارى ص ٦٨) .

ب ـ اعطاء درهمين لكل من يصلي صلاة الجمعة في مسجد قتيبة

ج ـ ولتعليم العوائل الدين الاسلامي وايقاف ممارسة الطقوس المجوسية خفية اسكن العرب مع سكان المدينة وسمح باختلاط العوائل والسكن في بيت واحد .

د ـ ابقى الحكام الصغد على مناصبهم لتولي الادارة طالما قد اسلموا ، اذ ان الاسلام لم يكن ليفرق بين عربي واعجمي ، بل ان أكرمهم عند الله أتقاهم ، والمساواة تامة بين الجميع(١) .

---

(١) وبعد هذا النصر وردت الى قتيبة رسالة الحجاج التالية (٢٤٧:٧ من كتاب الفتوح لابن أعثم) :

اما بعد ، يا قتيبة ! فقد استقبل الله عز وجل من أمرك بما لا يستقبل به احد قبلك من التمكن في البلاد والظهور على الاعداء . فخذ ما آتاك الله بقوة وكن من الشاكرين . وأعلمك يا قتيبة بانك الى الشدة في دين الله عز وجل أحوج منك الى اللين والوهن والضعف . فاشدد يديك أبا حفص بما قلدك الله تبارك وتعالى من امر خراسان . واتبع السياسة التي رضى الله بها عن عبده الصالح ذي القرنين . اذ قيل له لما بلغ مغرب الشمس « يا ذا القرنين أما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا » فأحب الله تبارك وتعالى ان يبلوه فيما آتاه . فهداه الى طاعته ومرضاته من الحزم والقوة . فقال « اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله الجزاء الحسنى . وسنقول له من أمرنا يسرا » فرضى الله بصنيعه الحسن وقص ذلك في كتابه العزيز على نبيه صلى الله عليه وسلم ليقتدي به ائمة الحق ورعاة الدين فتدبر أبا حفص ما كتبت به اليك من موعظة العبد الصالح . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

المخطط رقم (٣)

المعركة الليلية وتدمير النجدات حول سمرقند

فتح الشاش (طاشقند) وفرغانة

١ ـ بعد ان عاد قتيبة الى مرو فور انتهائه من فتح سمرقند ، يبدو انه وجد من المستحيل استتباب الأمن والنظام ما لم يقض نهائيا على القوات المسلحة للدول الثلاث الباقية الى الشرق من الصغد (سمرقند) ، وهي الشاش وعاصمتها طاشقند ، واشروسنة وعاصمتها خوجندة (لينين اباد حاليا) ، وفرغانة وعاصمتها فرغانة • وكانت خطته تقضي بما يلي (لاحظ الخريطة رقم ٥) :

آ ـ اشراك سكان المناطق المفتوحة بالمعارك القادمة ، وقد حشد عشرين الف جندي من محاربي خوارزم وبخارى ونسف وكش وسمرقند •

ب ـ التقدم على جميع تلك الدول في آن واحد ، (يعبر عنها العسكريون الآن بالحركة على الخطوط الخارجة) ، ويبدو ان هدفه تجميد قطعات كل دولة داخل حدودها ، وعدم السماح لهم بنجدة الواحدة للاخرى • ولذلك وضع خطته للتقدم برتلين (لاحظ الخريطة رقم ـ ٥) :

الاول ـ الرتل الجنوبي بقيادته هو بنفسه ، يتقدم على طريق سمرقند ـ خوجندة (عاصمة اشروسنة) ـ فرغـــانة ـ كاشان (كاسان الحالية والكائنة على مسافة ٢٠٠ كيلومتر الى الشرق من طاشقند ، والى الشمال من مدينة همنجان في ازبكستان ، وعلى حدود قرغيزيا السوفيتية) •

وكان الرتل مؤلفا من العرب ، اذ يظهر انه توقع مقاومة شديدة ، سيما وانه سيقوم بحركات ضد دولتين .

الثاني ـ الرتل الشمالي ، ويتألف من محاربي المناطق المفتوحة من مسلمي خوارزم وبخارى وسمرقند وكش ونسف وغيرهم . ويتقدم على طريق سمرقند ـ طاشقند ثم يلتقي بالرتل الجنوبي في كاسان (الفتوحات ١٩٦) و (غفوروف في طاجكستان) .

٢ ـ وفي عام ٩٤هـ / ٧١٢م تقدم قتيبة من مرو عابرا جيحون ، ومتوجها الى منطقة التحشد في سمرقند ، حيث تحشدت أيضا قطعات الرتل الشمالي .

أ ـ وجرى تنفيذ الخطة بحذافيرها ، اذ تقدم الرتل الجنوبي بقيادته على محور سمرقند ـ خوجندة فاخضعها بعد عدة معارك شديدة ، كما قام بحركات في المناطق الجبلية من اشروسنة ، علاوة على سهولها ، لفتح كل أراضي الدولة . ثم اندفع على محور خوجندة ـ فرغانة ، ففتح فرغانة بعد عدة معارك مع الفرغانيين ، ولم يسمح بوجود أي مقاومة تذكر في دولة فرغانة[1] ، اذ اندفع شمالا الى كاسان في انتظار ملاقاة الرتل الشمالي .

---

(١) ذكر المعركة أيضا ابن اعثم في الفتوح ٢٥٠:٧ بقوله :
« ثم اقبل قتيبة حتى نزل على ملك فرغانة واسمه باشك وكان له حصن وثيق يقال له كذة . وقد جمع باشك في ذلك الحصن جميع ما يحتاج اليه من آلة الحصار . قال : فأقام عليه قتيبة سبعة أشهر حتى فنى ما كان عنده ، ثم خدعه قتيبة فاستنزله من حصنه بغير أمان ، ثم قدمه فضرب عنقه صبرا .. فانشا حاجب بن ذبيان المازني في ذلك يقول ابياتا مطلعها :
كم من عدو قتلت ذي كلب جهم المحيا صبحت بالحرب

ب ـ وتقدم الرتل الشمالي على محور سمرقند ـ طاشقند . فخاض معركة عنيفة حول طاشقند التي ابدت مقـــاومة شديدة انتهت باحراقها ، وللقضاء على أية مقاومة تذكر في بلاد الشاش ، دفع قتيبة الرتل الشمالي الى اسفيجاب (مدينة جمكنت حاليا) ، والكائنة على مسافة ١٢٠ كيلومترا الى الشمال من طاشقند ، والواقعة في جمهورية كازاغستان شمال قرغيزيا ، فاحتلها الرتل ثم انحدر جنوبا الى طاشقند ، ومنها توجـــه شرقا على محـــور طاشقند ـ كاسان ، فالتقى بالرتل الجنوبي الذي وصـــلها قبله ، ويبـــدو من الخريطة التاريخية للانسكلوبيدية السوفيتية ، ان العرب وصلوا الى تالاك في قرغيزيا والكائنة على مســـافة ٢٠٠ كيلومتر فقط الى الغرب من فرونزا عاصمة قرغيزيا .

وبعد هذا النصر اللامع عاد حسب عـــادته لقضاء الشتاء ، واعادة التنظيم واراحـــة قطعاته في مرو . وفي عـــام ٩٥هـ/٧١٣م وردت اليه نجدات جديدة من العراق ، وتقـــدم نحـــو الشاش (طاشقند) نظرا لوجود تمـــرد فقضى بسهولة عـــلى القلاقل السياسية ، وبينما هو في طاشقند بلغه نبأ وفاة والي العـــراق ، وقائد الجبهة الشرقية الحجاج بن يوسف الثقفي[1] فعاد الى مرو ،

(١) جاء في كتاب الفتوح لابن أعثم ٧:٢٤٨ (ومرض الحجاج مرضته التي توفى فيها ، فلما أحس من نفسه الضعف وعلم انـــه ميت كتب الى قتيبة أيضا بهذا الكتاب : أما بعد يا قتيبة . فاني كتبت اليك كتابي هذا وقد اشتد وجعي . لعل الله تعالى ان يجعل علتي هذه كفارة لذنوبي .. واني لاعلم رجالا من المنافقين سيشتد سرورهم بما لي عند الله من عداوتهم اياي على دينه واخذ حقـــه منهم ، واني لاعلم رجالا يشتد لذلك جزعهم لما يتخوفون من ظهور =

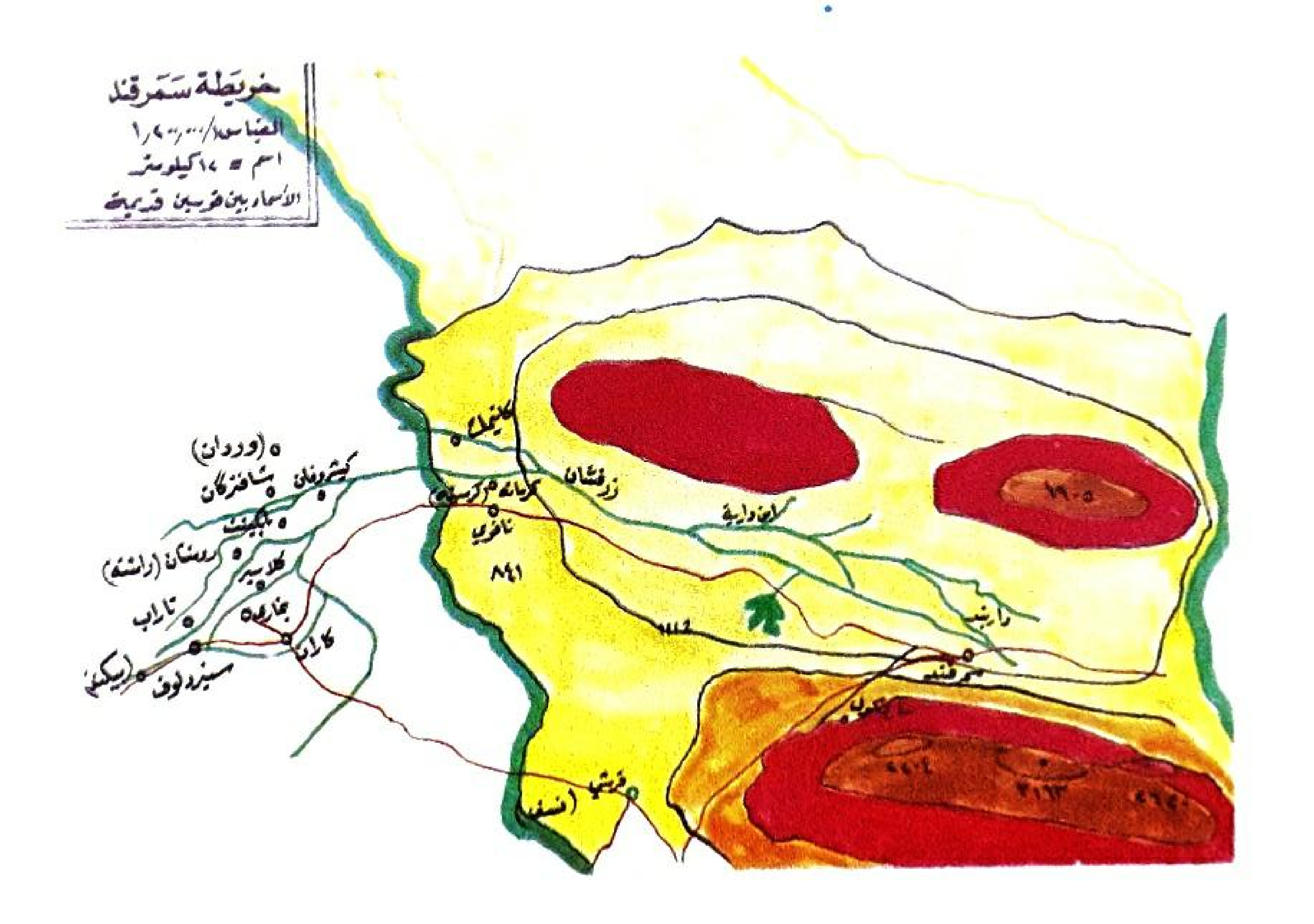
ولكنه استلم رسالة من الخليفة الوليد بن عبدالملك تثبته في منصبه ، وفحواها (قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك . فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ؛ ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني انظر الى بلائك والثغر الذي انت فيه) .

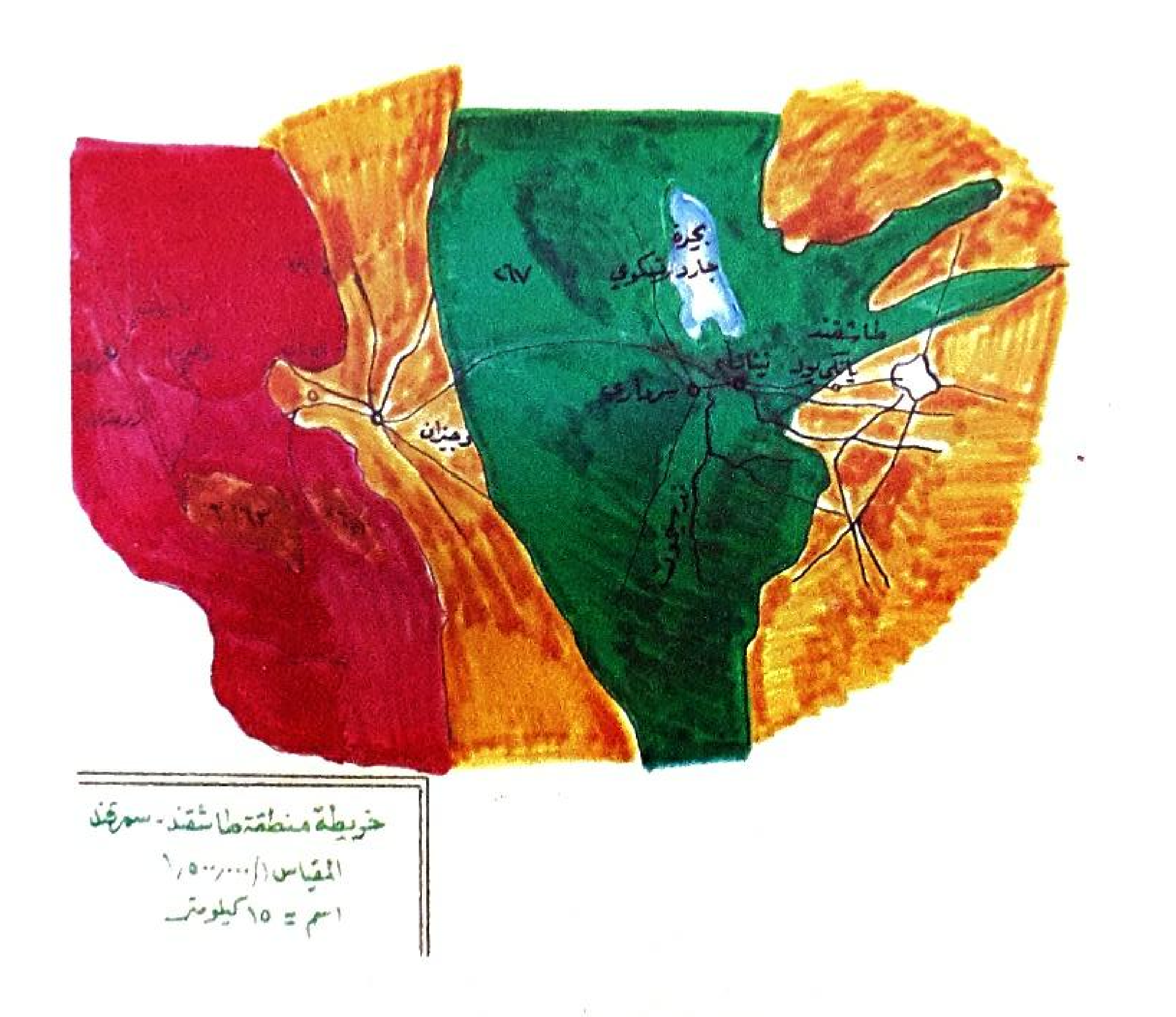
= الاعداء . وقد علمت ان الذي ينصرهم في حياتي هو الذي ينصرهم بعد مماتي .. فانظر يا قتيبة ان تكون اشد مما كنت في أمر الله وجهاد الكفار والمنافقين . واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . استودعك الله يا قتيبة ، انك ومن معك من المسلمين حتى نلتقي نحن وأنت غدا بين يدي الرب الرحيم .

ومن رثى الحجاج الشاعر الفرزدق بن غالب اذ قال (الفتوح ٧:٢٤٩) :

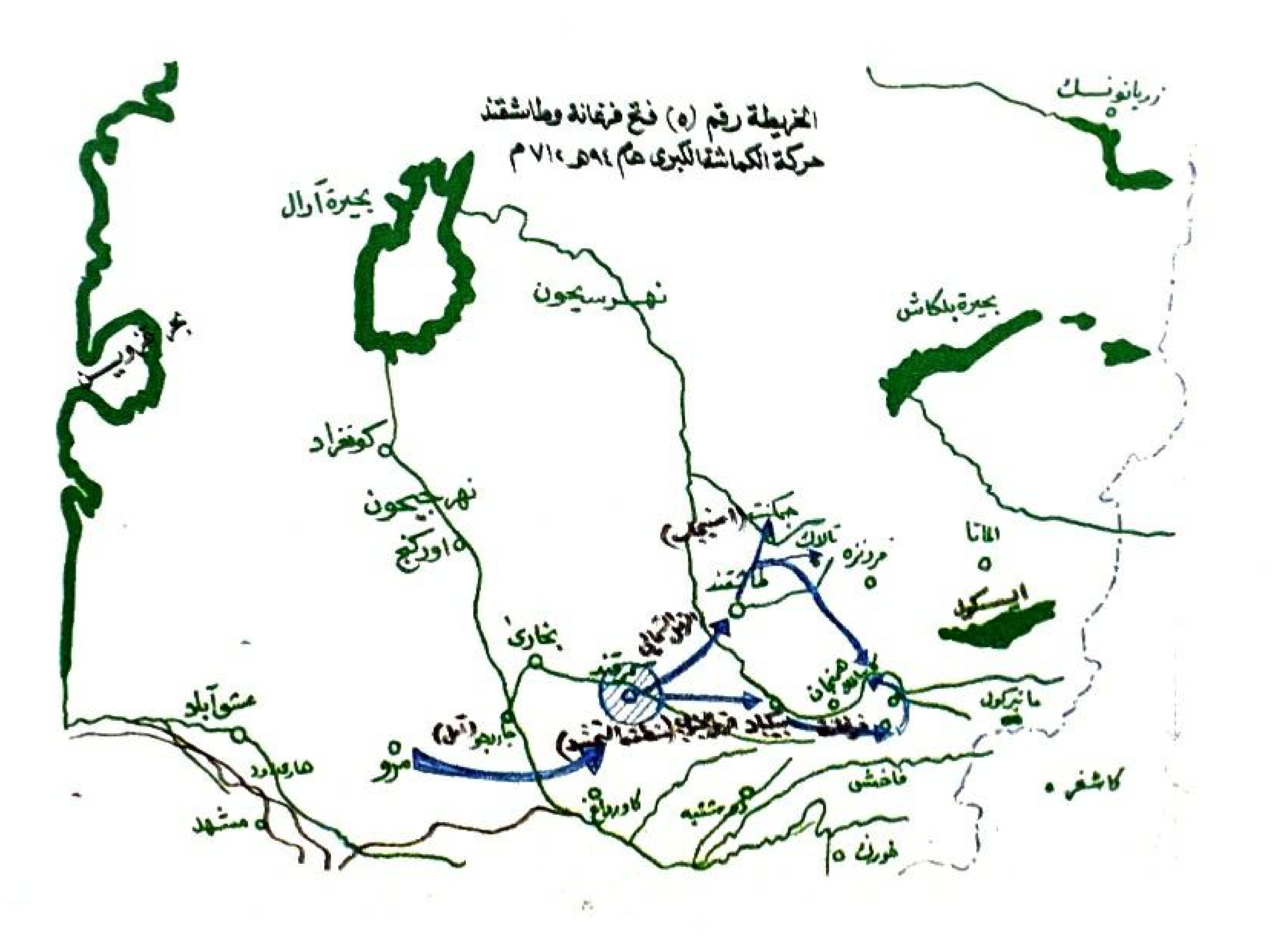
ليبك على الاسلام من كان باكيا
على الدين او مستوحش الليل خائف
وارملة لما اتاها نعيه اجادت له بالواكفات الذوارف
وقالت لاتراب لها قمن حسرا فقد مات راعي ذودنا بالتألف
فما ضمنت ارض كمثل ابن يوسف
ولا خط يوما في بطون الصحائف

وقد عين الوليد بن عبدالملك يزيد بن أبي كبشة السكسكي واليا خلفا للحجاج .


خريطة سمرقند
المقياس ١/٢٠٠٠٠٠٠
١سم = ٢٠ كيلومتر
الأسماء بين قوسين قديمة
(وردان)
كشبوغان
بشافرگان
روستان (راشنة)
تاراب
بخارى
سيز دوف
(ربيكة)
كرمانه
ناغري
٨٤١
زرفشان
٧٩٠٥
راينب
سمرقند
٧١٢
٤٦٤٠
٣١٦٣
٥٥٠٤
قرشي
(نسف)



خريطة منطقة طاشقند - سمرقند
المقياس ١/١،٥٠٠،٠٠٠
١سم = ١٥ كيلومتر


الخريطة رقم (٥) فتح فرغانة وطاشقند
حركة الكماشة الكبرى عام ٩٤هـ ٧١٢م
بحيرة آرال
نهر سيحون
نهر جيحون
كونغراد
اورگنج
بخارى
سمرقند
مرو
عشق آباد
مشهد
بحيرة بلكاش
الماتا
ايسيكول
مرزنه
كاشغر
قادش
ترمذ

فتح كاشغر الصينية

١ ـ كان الوضع السياسي مضطربا في الولايات الغربية من الصين والتي تسمى تركستان الشرقية أو تركستان الصينية ، وكان الامراء الاويغوريون متفرقين وفي تناحر مستمر فيما بينهم ، فاستغل ذلك قتيبة ورآها فرصة مواتية للتقدم الى كاشغر ، علاوة على سببين آخرين مهمين كما يبدو لي وهما :

آ ـ ردع امراء الاويغور من التدخل في المناطق المفتوحة ، سيما وانهم كثيرا ما ساندوا حكام فرغانة في معاركهم ضد العرب •

ب ـ اظهار قوة الجيش العربي وشدة بأس قتيبة بعد موت الحجاج ، لكي لا يترك انطباعا لدى سكان المناطق المفتوحة بان وجود الحجاج كان سبب تلك الفتوح •

٢ ـ كانت خطة قتيبة للتقدم الى كاشغر تتضمن الامور التالية :

أ ـ حشد أكبر قوة عربية ممكنة ، فبلغت قطعاته ٤١ الفاً (تاريخ بخارى ص ٦٣) •

ب ـ مصاحبة العوائل العربية للجيش واسكانهم في سمرقند •

جـ ـ اتخاذ اجراءات انضباطية شديدة ووضع حامية على معبر نهر جيحون ، تمنع العودة الى الوراء الا باجازة من قتيبة •

د ـ قيام الفعلة (الهندسة) بتمهيد الطريق داخل شعب عصام (وادي عصام) ويبدو انه بين فرغانة والحدود الصينية •

هـ ـ التقدم على الطريق التجاري الذي يربط فرغانة بمدينة كاشغر ، والذي يمر الى الجنوب من بحيرة جاتيركول السوفيتية الآن ، على الحدود الصينية ـ السوفيتية ، واقتحام ممر تيترك في تركستان الشرقية (تاريخ بخارى ص ٦٩) .

٣ ـ في عام ٩٦ هجرية / ٧١٤م تقدم قتيبة حسب الخطة أعلاه ، وقد أرسل مقدمته بقيادة كبير بن فلان(١) ، فأحتل كاشغر وتوغل الى ما ورائها ، حتى بات الاصطدام بين جيش المشرق والصينيين وشيكا ، فطلب ملك الصين التفاوض فوافق قتيبة على ذلك .

ومن الطريف ان انقل نص ما ذكره صاحب تاريخ بخارى في الصفحة ٦٩ (ليتجه بعد ذلك الى ممر تيترك في تركستان الشرقية ، التي نعرفها باسم التتار الصينية . هناك هاجم امراء الاويغور ، وقد يسر له تفرق كلمتهم التغلب عليهم جميعا الواحد بعد الآخر برغم استنجاد كثير منهم بالقلمون ، الذين كانوا ينزلون في جنغاريا الشمالية . ويقال ان العرب قد بلغوا في غزوهم هذا ولاية قانسو (راجع خريطة الصين الادارية المرفقة رقم ٦) وبالرغم ان تعاليم النبي العربي لم تستطع ان ترسخ اقدامها في كاشغر وختن وترفان ، الا بعد مضي زمن طويل ، اذ لبثت البوذية والمسيحية ولهما اتباع عديدون بهذه المناطق لعدة قرون من بعد ذلك ، فهناك حقيقة مشهورة ، هي موضع فخر عند أهالي

(١) في الطبري (كثير بن فلان) وفي ابن الاثير (كبير بن فلان) وفي كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي ٢٥١:٧ (كثير بن ايم الرياق) .

تركستان ، مفادها ان ترفان قد سارع اهلها الى الدخول في الاسلام أول ظهور العرب عندهم • على ان ذلك لا ينفي وجود اشـد البوذيين تمسكا بعقيدتهم في وديان تيان شان •

ومن هذا الوضع ، الذي غدا آخر حدود الاسلام الشرقية ، آب قتيبة الى مرو بطريق فرغانة دعاه الى ذلك موت الخليفة الوليد• وخشي قتيبة مغبة غضب الخليفة الجـديد سليمان بن عبدالملك عليه ، وكان يعلم مدى كراهيته له ، فبادر باعلان خروجه عليه • ويبدو ان قتيبة انما دفعه إباؤه الى سلوك هذا المسلك حين كشف عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جنده اليه ، بعد ان فشل في التغرير بأمير خراسان القوي نفسه) •

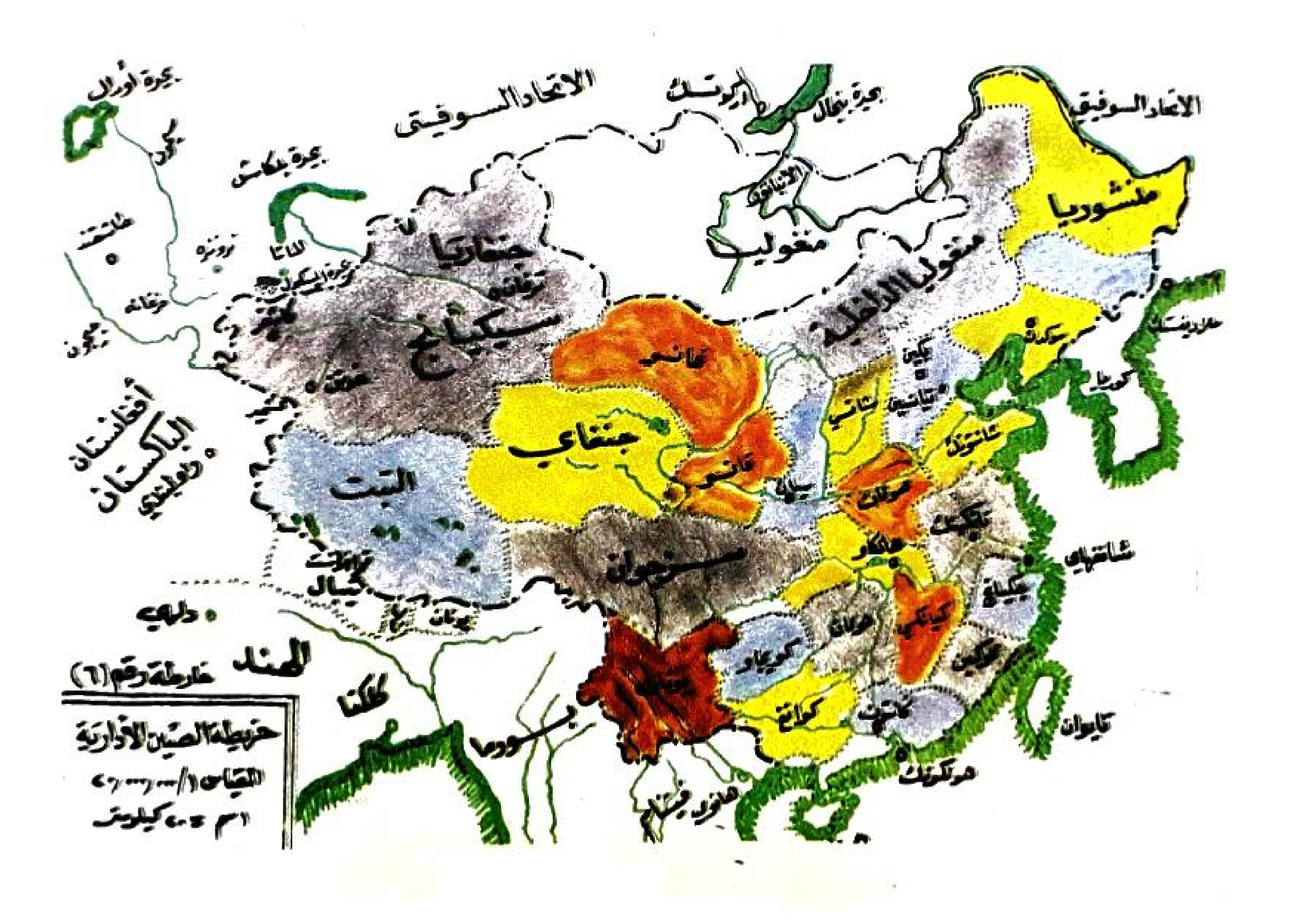
واني أنقل أيضا نص ما ذكره صاحب الفتوحات الاسلامية في الصفحة ١٩٧ (في سنة ٩٦ غزا قتيبة كاشغر ، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند ، فلما عبر النهر استعمل رجلا على المعبر ليمنع من يرجع الا بجواز منه ومضى الى فرغانة • وارسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهي أدنى مدائن الصين ، وبعث جيشا مع كبير بن فلان الى كاشغر فغنم وسبى سبيا فختم أعناقهم واوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين ان ابعث الى رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصـلاح • فأمر لهم بعُدَّة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك ، وخيول حسنة • وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي ، فقال لهم اذا دخلتم عليه فاعلموه اني قد حلفت اني لا انصرف حتى أطأ بلادهم

واختم ملوكهم واجبي خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة ، فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين ، فلبسوا ثيابا بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده ، فنهضوا فقال الملك لمن حضره كيف رأيتم هؤلاء ، فقالوا رأينا قوما ما هم الا نساء ما بقى منا احد الا انتشر ما عنده . فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه ، فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا . وقال لاصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة قالوا هذه اشبه بهيئة الرجال من تلك . فلما كان اليوم الثالث ، دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل ، فلما دنوا ركزوا رماحهم واقبلوا مشمرين ، فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون . فقال الملك لاصحابه كيف ترونهم ؟ . فقالوا ما رأينا مثل هؤلاء فلما امسى بعث اليهم ان ابعثوا اليّ زعيمكم . فبعثوا الى هبيرة بن مشمرج . فقال له : قد رأيتم عظيم ملكي وانه ليس احد يمنعكم مني . وانتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي ، واني سائلكم عن أمر فان لم تصدقوني قتلتكم . قال : سل . قال : لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ما صنعتم ؟ . قال : اما زينا الاول فلباسنا في اهلنا ، واما اليوم الثاني فزينا اذا أممنا امراءنا ، واما الثالث فزينا لعدونا . قال ما احسن ما دبرتم دهركم ، فقولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة اصحابه والا بعثت عليكم

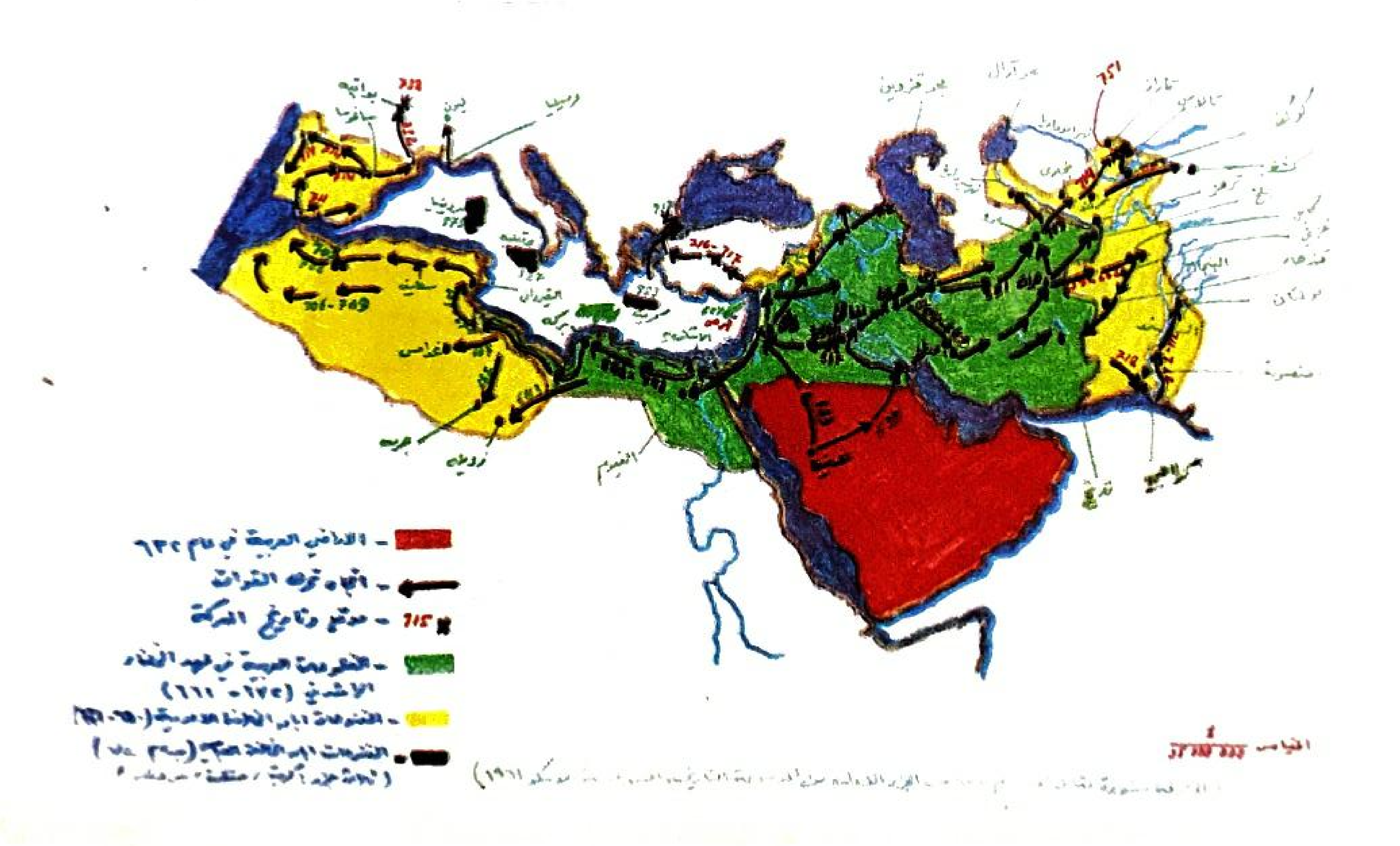


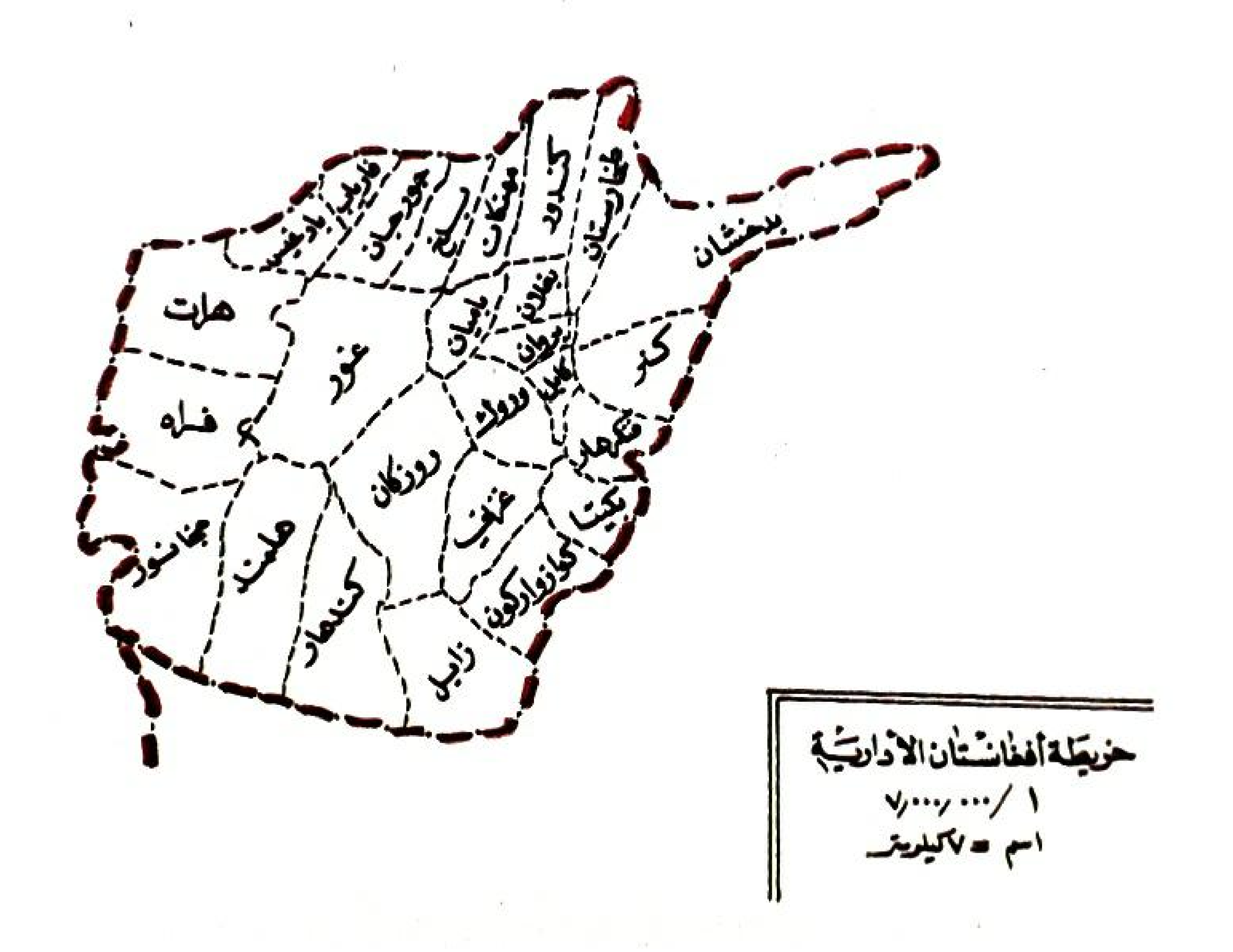
من يهلككم ، قالوا كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، يعنون الشام . وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا ، اذا حضرت فاكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف اميرنا ان لا ينصرف حتى يطـأ ارضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال انا نخرجه من يمينه ونبعث تراب ارضنا فيطؤه ، ونبعث اليه ببعض ابنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها . ثم بعث اليه بهدية وأربعة غلمان من ابنـاء ملوكهم وشيء من تراب ارضهم ، واجاز العشرة الوافدين فاحسن جائزتهم فقدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهـم ووطىء التراب ، ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزوة بموت الوليد فرجع) .

ومن ملاحظة خريطة الصين المرفقة نرى ان جنغاريا كائنة على حدود منغوليا ، وان مدينة ترفان التي وصلها على مقربة من الحدود المنغولية ، وان مدينة خوتن كائنة شمال التبت وكشمير ، وان ولاية قانسو التي ذكر المستشرق ارمانوس ان العرب قد وصلوها تقع تماما في منتصف الصين !! (راجع الخريطة رقم ٦) .



الاتحاد السوفيتي
الاتحاد السوفيتي
بحيرة بيكال
بحيرة أورال
بحيرة بلكاش
منشوريا
منغوليا
منغوليا الداخلية
جنغاريا
سينكيانغ
كانسو
جنغاي
التبت
سيشوان
شانتونغ
شانغهاي
تايوان
هونكونغ
أفغانستان
الباكستان
دلهي
الهند
كلكتا
بورما
نيبال
خريطة رقم (٦)
خريطة الصين الإدارية


- الاراضي العربية في عام ٦٣٢
- اتجاه تحرك القوات
٧١٥ - موقع وتاريخ المعركة
- الفتوحات العربية في عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢ - ٦٦١)


خريطة افغانستان الادارية
١/٧،٠٠٠،٠٠٠
١سم = ٧٠كيلومتر
بدخشان
تخارستان
كندوز
سمنگان
بلخ
جوزجان
فارياب
بادغيس
هرات
فراه
چخانسور
هلمند
كندهار
زابل
غور
روزگان
غزني
وردك
باميان
بغلان
پروان
كابل
كنر
ننگرهار
پكتيا

الفصل الرابع

الباهلي .. القائد

مأساة القيادة

كما أشرت في أول الكتاب في الحديث عن قتيبة بن مسلم ، فان اختلافه مع سليمان بن عبدالملك كان قد اوغر صدر سليمان ، وظل حاقدا ليس على قتيبة فقط ، بل على القادة الذين أيدوا انتخاب عبدالعزيز بن الوليد وليا للعهد ، بدلا من سليمان ، الا ان ذلك لم يتم بسبب وفاة الوليد بن عبدالملك قبل اتمام البيعة ، فنكل سليمان بكل القادة المشهورين ، وهم موسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم ، وكان سليمان كما وصفه الكازروني (صاحب مختصر التاريخ ص ٩٤ تحقيق الدكتور مصطفى جواد) (طوالا جميلا ، أبيض فصيحا ، لسنا معجبا بنفسه ، متوقفا عن الدماء ، وكان شرها نكاحا ، يأكل كل يوم نحوا من مائة رطل) .

ولكن قتيبة كان بعيد النظر وكان يعرف مصيره ، فأبى ان ينتقم منه ويموت تعذيبا كما حصل مع الآخرين ، لا لشيء سوى انه ابدى رأيا صحيحا ، وجاهد جهادا ساميا لتوطيد أركان الدولة ، فقرر احباط مؤامرة سليمان عليه . وكان سليمان كما يروى البلاذري ص ٥٢٠ (كتب الى قتيبة بالولاية ، وامره باطلاق كل من حبسه ، وان يعطي الناس اعطياتهم ، ويأذن لمن أراد القفول

بالقفول ، وكانوا متطلعين الى ذلك . وامر رسوله باعلام الناس بما كتب) .

ومفهوم من الرسالة انه لا ينوى ابقاء قتيبة قائدا الا لفترة ، ريثما يمكنه من تحريض الناس عليه واتهامه ، ومن ثم القاء القبض عليه . والا فما معنى اطلاق سراح من حبسهم قتيبة ، ومتى كان قتيبة لا يعطي الجنود رواتبهم وهو الذي أغناهم ، ثم لماذا يسرح الجيش ويأذن للناس بالقفول ، هل انتهت الفتوح ؟. لقد كان ذلك تحريضا خطيرا سيما وان الجيش قد ابتعد كثيرا عن مواطنه ، وان معظم الجنود طبعا يرغبون بالعودة الى العراق .

وتآمر سليمان واضح ، اذ انه طلب من حامل الرسالة ان يبلغ الناس بما كتبه الى قتيبة ، أي ان سليمان كان يريد اهانة قتيبة ومقام الولاية والحكم .

ويروى البلاذري ان قتيبة قال (هذا من تدبيره علي) وقام فقال ايها الناس ! أن سليمان قد مناكم مخ أعضاء البعوض ، وانكم ستدعون الى بيعة انور صبي لا تحل ذبيحته) .

ويرى الاستاذ عبدالحميد العلوجي ان البلاذري كتب (انوك) بالكاف التي حسبها الاستاذ صلاح الدين المنجد (راءً) عند تحقيقه لفتوح البلدان ، فيكون الصحيح (انوك) لا (أنور) أي ان سليمان يمنيكم المستحيل وانكم ستدعون لبيعةِ احمقَ ، صبيٍ لا تحل ذبيحته .

وكان سليمان قد حرض بني تميم وقائدهم وكيع بن حسان ابن قيس التميمي ، فحمل عليه وهو في بيته فدافع عن قتيبة اخوته

وعدد من امراء الصغد الذين كانوا حاضرين • ويذكر البلاذري (قطعت أطناب الفسطاط وأطناب الفازة فسقطت على قتيبة ، أو سقط عمود الفازة على هامته فقتله) وقال (وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة) •

ويروى صاحب الفتوحات الاسلامية ص ١٩٩ فيقول عن مقتله (كان قتيبة فحل عمال الدولة الاموية والحجاج فرعونها ، ومكث قتيبة على خراسان ثلاث عشرة سنة ، وفتح كثيرا من المدائن التي كانت فتحت قبله ثم كفر اهلها وتغلبوا ، فقاتلهم حتى فتحها ، وفتح غيرها أيضا كما تقدم • وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة ، وسبب قتله موافقته للوليد بن عبدالملك حين أراد خلع أخيه سليمان • وذلك ان عبدالملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ثم من بعده لاخيه سليمان • فأراد الوليد ان يخلع سليمان ويبايع لابنه عبدالعزيز فلم يوافقه على ذلك الا الحجاج وقتيبة بن مسلم • ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ، ولم يتمكن من خلع أخيه ، فبويع لاخيه سليمان فخاف قتيبة منه ، وكان سليمان بن عبدالملك صديقا ليزيد بن المهلب ، فخاف قتيبة ان يعزله ويولي يزيد بن المهلب ، فدعا الناس الى خلع سليمان ، وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان عن رئاسة بني تميم ، وصيرها لضرار بن حصين الضبي ، فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع ، وتجمع معه كثير من قومه ، فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها فقتل فيها قتيبة ، وقتل معه من اهله اخوته عبدالرحمن وعبدالله وصالح

وحصين وعبدالكريم ومسلم ، وقتل كثير ابنه وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته احد عشر رجلا ، ونجا عمر بن مسلم(*) أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤوس أهل بيته الى سليمان بن‌عبدالملك. وقام بالامر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر . ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان .. يا معشر العرب : قتلتم قتيبة ! والله لو كان منا فمات ،لجعلناه في تابوت فكنا نستسقي به ونستفتح به) .

وحسبما ورد في مصادر تاريخية أخرى ، فان موسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي قد أيدوا الوليد بن عبدالملك في نواياه لخلع سليمان وليس الحجاج وقتيبة فقط . ومن الطريف والواجب ان نذكر رواية المستشرق الهنغاري ارمينوس ڤامبرى في كتابه تاريخ بخارى في الصفحات ٦٩ ـ ٧١ وخشي قتيبة مغبة غضب الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك عليه ، وكان يعلم مدى كراهيته له فبادر باعلان خروجه عليه . ويبدو ان قتيبة انما دفعه اباؤه الى سلوك هذا المسلك ، حين كشف عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جنده اليه بعد ان فشل في التغرير بأمير خراسان القوى نفسه .

وكان قتيبة حتى في ثورته هذه بصيرا بتدبير العواقب وحمل رسوله كتابين آخرين الى جانب كتاب التهديد الذي بعث به الى الخليفة .

---

* في رواية البلاذري : ضرار بن مسلم (فتوح البلدان ، ج ٣ ص ٥٢١) .

اما الاول فكان يعرض فيه ولاءه ، واما الثاني فكان يسخر فيه من يزيد بن المهلب ، وكان قتيبة يخاف منافسته له بوجه خاص . وفي الكتاب الثالث اعلن قتيبة انه لن يتردد في الجهر بالخروج على الخليفة اذا ما بعث بيزيد مكانه .

ولما كان قتيبة قد توقع بحق ، تقريب الخليفة ليزيد وملازمته له ، فقد اوصى رسوله بان يتقدم الى سليمان بالكتاب الاول ، حتى اذا ما رآه يدفعه الى يزيد ، فليقدم اليه الثاني كذلك ، فاذا ما جعل يزيد يقرؤه فليدفع اليه بالثالث[1] .

ووجد الرسول يزيد بالفعل عند الخليفة فسار على ما رسمه له أميره ، ولم يبد سليمان للرسول شيئا واذن له في الرحيل بسلام . ولم يكد الرسول يعود الى بلده حتى كان قتيبة فرض في نفسه ان الامور قد انتهت بالفعل على الوجه الذي ظنه ، أول الامر ، أو لعله كان قد أخبر بذلك قبل عودة رسوله ، فرفع راية العصيان . على ان امله خاب الى درجة كبيرة في ذلك الجند الذي سار بهم فاحرز اعظم الانتصارات الباهرة الكثيرة ، واستحوذ على الاموال الطائلة ، ولو كان قد استمع الى نصيحة أخيه عبدالرحمن حين نصحه بالمسير الى بلاد ما وراء النهر واقامة ملك مستقل له بها ، لكان قد افاد من روح التمرد والثورة وحب المغامرة التي كانت تغلب على أهل تلك البقاع . ولكنه أصر على البقاء معتمدا على ولاء جنده له . وفي مرو وقف قتيبة يتحدث الى قومه ويبصرهم بحسن ادارته لحكومة خراسان وما ينتظرهم من بؤس وشقاء اذا

(١) رواها ايضا ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح ٧:٢٥٧ .

ما صار الامر الى خلفه العاجز الفاجر • وعبثا أخذ يذكرهم بانه قد ضمهم الى جيشه فقراء معوزين فاغناهم بكنـوز امراء الترك والفرس • بل الهبت كلماته هذه من حماس اولئك الذين تآمروا عليه وعلى رأسهم وكيع بن الاسود وحسن بن اياس • سقط عليه المتآمرون وقتلوه بعد نضال مرير سقط فيه اغلب اخوته ، وكانوا على رأس عدد قليل من الموالين له الذين اسرعوا يدافعون عن داره ، وهكذا قضى في شهر ذي الحجة من عام ٩٦ هجرية / ٧١٤م وهو في الرابعة والسبعين (يقصد الرابعة والاربعين) من عمره الملىء بالحياة ، ذلك الرجل الذي أقام للاسلام دولة قوية عظيمة في الشرق ، واجهز على دين زرادشت ، ذلك الدين الذي اثخنته الجراح في القادسية والنهروان (يقصد نهاوند) وغرس مكانه تعاليم الاسلام في أرض كانت على الدوام أخصب البقاع حميـة وتحمسا لهذه العقيدة الجديدة) •

وقد استقى فامبرى معلوماته حول الرسائل من كتاب تاريخ الخلافة لفيل ـ طبعة مانهايم ١٨٥٦ ، باللغة الالمانية ، الجـزء الاول ، القسم الخامس ، الصفحة ٥٦٥ •

وقد أشار اليها أيضا ابن الاثير في الجزء الخامس طبعـة ليدن • كما روى الطبري تفاصيل نهاية قتيبة وكيف انه انشـد البيت التالي عندما لاحظ الهيثم بن المنخل مع المتآمرين :

اعلمـه الرمـاية كـل يـوم
فلما اشـتد سـاعده رمـاني

ان نهاية قتيبة المأساوية لا تدل على ضعف فيه ، لقد كان قويا

باستمرار بأخلاقه وسلوكه واخلاصه . لقد رفض حتى نصائح أخيه بتكوين دولة فيما وراء النهر ، مع وجود كل مقومات ذلك ، لان قتيبة لم يكن ليطمع بالملك أو الجاه ، ولكنه كان يرى عدم صلاح سليمان للخلافة ، وكان على حق وهكذا اثبت التاريخ .

ان مأساة القيادة ليست في الاجحاف والظلم الصارخ ، الذي أصاب قائدا وفتى عربيا ناضل كأحسن ما يكـون النضال ، في سبيل العرب والاسلام ، والنهاية القاسية البربرية التي تعرض لها أهل بيته واخوته وابناؤه ، بل ان مأساة القيادة ان يتوصل اليها عدد من الذين لا يقدرون عليها ، ولا يقدرون اهميتها ، وتأثير تصرفاتهم على مستقبل الامة . ترى لو لم يكن سليمان يرقى الى القيادة العليا ، من يدري ماذا كان سيحدث للعرب ! فلربما لم يهزموا في بواتيه بعد عشرين سنة على ضفاف اللوار ، وربما دخل قتيبة الصين أو صعد شمالا من شرق بحر الخزر نحو الفولغا ، وربما اكمل محمد بن القاسم فتح كل الهند . وربما طال امـد الدولة الاموية ودام حكم العرب أطول مما حكم به الخلفـاء الاوائل من بني العباس ، لكي يجنبوا بقية اللعب من خلفاء بني العباس المتأخرين الذين اضاعوا الحكم والعروبة والبلاد .

صِفات القيادة البارزة

١ ـ الصفات العسكرية

آ ـ سعة الاطلاع

ان سعة الاطلاع من اولى الصفات التي يجب ان يتحلى بها القائد العسكري • وليس المقصود سعة الاطلاع بالامور العسكرية وقيادة التشكيلات ، وانما ان يلم بالامور الادارية ومعرفة طبائع من يقود ، وسجية النفس البشرية ، وأوضاع البلد السياسية والاقتصادية والجغرافية ، ناهيكم عن أحوال العدو وسياسته وستراتيجيته وتكتيكه (تعبيته) •

وبطلنا الذي تتحدث عنه : قتيبة بن مسلم الباهلي ، كان واليا لاقليم الري (منطقة طهران وجنوب بحر قزوين) ولو لم يكن ذا سعة في الاطلاع لما عين بذلك المنصب الخطير ، في منطقة كانت منبعا للمشاكل ومثارا للفتن ، ومجاورة لاقليم خراسان الذي كان دائم التمرد ويلتهب بالروح القومية الفارسية ، ولاشك ان ادارته لاقليم الري قد زادت من سعة اطلاعه ووسعت مداركه وفتحت أمامه آفاقا جديدة من المعرفة وحسن التدبير •

ان سعة اطلاعه قد ثبتت عند قيادته للجيش في بلاد ما وراء النهر وبقائه بذلك المنصب مدة تزيد على ثلاث عشرة سنة متواصلة وهي مدة زمنية لم تتهيأ لأي قائد عربي ان يواصلها اطلاقا غير المثنى بن حارثة الشيباني ، الا ان المثنى بقي في ميدان المعركة

بالعراق منذ شب حتى وافته المنية ولم يفسح له المجال لكي يرقى الى مناصب القيادة العسكرية والادارية العليا وفي بلاد غير عربية •

ب - البراعة العسكرية

أولا - لم يكن قتيبة من طراز القادة العسكريين الاعتياديين الذين ينتصرون بسبب ضعف العدو أو مساعدة الظروف أو لأن لهم جيوشا قوية ، بل كان ينتصر بسبب حسن تقديره للموقف وبراعته العسكرية وقوة وتنظيم ومعنويات جيشه • ومما اعجبني ما قاله عنه المستشرق (ارمينوس ڤامبرى) في كتابه (تاريخ بخارى) الصفحة ٦١ (وآب العرب من بعد ذلك الى مرو لا ليتركوا سكان بلاد ما وراء النهر المنكوبين وشأنهم ، وانما ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد ادى حذره وشجاعته وقوة جلده الى اطفاء آخر بصيص لحضارة ايران القديمة ، كان يومض في هذه المنطقة التي ظهرت فيها الحضارة أول ما ظهرت ، ويغرس من بعد ذلك تعاليم النبي العربي في وديان تيان شان المترامية الاطراف •

كان هذا القائد هو قتيبة بن مسلم الذي أمره الحجاج بفتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، لا ان يغير عليه وينتهب ما فيه فقد كاد أن يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية • هناك جمع جنده في مرو فأخذ يذكرهم بآيات الله وأحاديث نبيه ثم نزل عن المنبر وامتطى فرسه •• (وتلك شهادة مؤرخ اجنبي الف كتابه عام ١٨٧٢) •

ثانيا - وفي حملة قتيبة على بخارى عام ٨٩ هجرية / سنة ٧٠٧م وتقديرا منه لاهمية المطاردة في القضاء على جيش العدو

والحصول على نصر حاسم دفع بكتائب الخيالة في مطاردة عنيفة زادها ان نادى من أتى برأس فله مائة درهم فكانت مطاردة حاسمة قضت تماما على جيش الخصم .

ثالثا ـ وتقديرا منه لاهمية المعنويات في المعركة مما يؤكد اصالة براعته العسكرية يذكر صاحب الفتوحات الاسلامية (ج ١ ص ١٨٠) انه كان لقتيبة جاسوس في المنطقة أثناء تقدمه على بخارى اسمه تنذر فرشى أهالي بخارى الجاسوس لكي ينقل لقتيبة خبرا كاذبا وهو ان الحجاج قد عزل ، وان واليا جديدا بدلا من قتيبة قد عين على خراسان ، ونصحه بالعودة فما كان من قتيبة الا ان قبض عليه وقتله كي لا ينتشر الخبر فتنهار معنويات قطعاته وهي في المعركة فيكون الهلاك مصيرها . وتجدر هنا ملاحظة وهي لابد ان يكون لقتيبة شبكة من العيون غير هذا والا كيف يقتل جاسوسه الوحيد ؟ ! .

رابعا ـ وعندما طال حصار قتيبة للملك نيزك في وادي خولم وتعذر عليه اقتحام المضائق التي دافعت عنها قوات العدو عمد الى التسلل بقطعات قليلة عبر الجبال فاقتحم مواضع الخصم الدفاعية من الخلف بحركة مباغتة من حيث الزمان والمكان واسلوب القتال فلم ينج منهم الا القليل

خامسا ـ ويذكر الاكاديمي المرحوم بابا جان غفوروف في كتابه (تاريخ طاجكستان) عن حصار قتيبة لسمرقند ذات الاسوار الجبارة ان قتيبة أمر بالحفر تحت أسوارها في الوقت



الذي حشد عليها اكبر حشد من المنجنيقات (مدفعية ذلك الزمان) وكان عددها ٣٠٠ منجنيق فأجبر حاميتها على الاستسلام •

سادسا ـ وعندما حاول جيش الخصم الزحف لفك الحصار عن سمرقند بقطعات كبيرة ومن خيرة جنوده يقودهم ولي العهد نفسه ابن الخاقان فكر قتيبة في هذه المعضلة العسكرية التي وضعته في موقف حرج للغاية بين جيشين ، فقرر بعد تقدير سريع للموقف ان يبعث بكتيبة قوامها ٦٠٠ فارس منتخب بقيادة اخيه صالح بن مسلم تكمن في كمينين على جانبي طريق تقدم جيش العدو وعلى مسافة فرسخين من سمرقند (١٢ كيلومترا) وتباشر بهجوم صاعق من الجانبين في هجوم ليلي وارى انه اراد الهجوم الليلي لعدة اسباب اهمها :

(١) ـ ان الهجوم الليلي يخفي قلة عددهم •

(٢) ـ يصعب على العدو استعادة رباطة جأشه واعادة تنظيمه ليلا •

(٣) ـ ان للهجوم الليلي رهبة تزعزع معنويات الخصم •

(٤) ـ يمكن لقتيبة ان يسحب جزءاً من القطعات التي تحاصر سمر قند تحت جنح الظلام دون ان يشعر العدو فيشترك في المعركة لنجدة الكمينين وهذا ما حصل •

فقد وجه الكمينان ضربة شديدة لرتل العدو وعندما افاق من الصدمة لمقاتلة الكمينين كان قتيبة بنفسه قد صدم العدو من الامام فكانت ملحمة أبلى فيها الطرفان بلاء حسنا وانتهت بابادة العدو واستسلام سمرقند • وقد ذكرت هذه المعركة في كتاب

الفتوحات الاسلامية ج ١ص١٩٦ (قال بعض اصحاب صالح ، انا لنقاتلهم في الليل اذ رايت قتيبة وقد جاء سرا فضربه ضربة اعجبتني ، فقلت كيف ترى بابي انت وامي . قال اسكت فض الله فاك ثم قاتلوهم اشد القتال فهزموهم .. الخ) .

هذه امثلة قليلة من ادلة عديدة على درايته العسكرية . وحسبي ان اذكر انه القائد العربي الوحيد الذي ادام جهادا متواصلا ومعارك ناجحة باستمرار على مدى (١٣) عاما دون ان يعزل وحطم الممالك السبع وراء النهر .

ج ـ التماس بالقطعات

لقد عرف عن قتيبة انه كان يقود القطعات بنفسه بل ويندفع مع قطعاته الامامية في اكثر الاحيان .

أولا ـ ففي سنة ٨٨ هجرية تقدم نحو نومشكت ورامتنة وبعد ان نجح في حملهم على الصلح زحفت نحوه جموع الترك والصغد واهالي فرغانة في جيش تعداده كما يذكر صاحب الفتوحات الاسلامية ٢٠٠ الف مقاتل ، وهاجموا ساقته وهي مؤخرة المؤخرة وكان عليها أخوه عبدالرحمن بن مسلم وكان قتيبة مع المقدمة ، فما كان من قتيبة بعد أن علم بالامر الا أن يدير عنان فرسه نحو المؤخرة فتمكن من دحر العدو .

ثانيا ـ رأينا انه كان يحاصر الملك نيزك طرخان ملك بادغيس في وادي خولم بنفسه ويدير معركة ناجحة في القضاء على مواضع العدو وتحصيناته في الوادي .

ثالثا ـ رأينا كيف اشـــترك بنفسه في المعركة الليلية عنـدما وضع الكمينين على طريق تقدم جيش العدو الذي كان ينوي فك الحصار عن سمرقند •

د ـ تحمل المسؤولية

لاأظن ان احدا من القواد العرب لم يكن يتحلى بهذه الصفة في ذلك العهد • فان بعد المسافة بين الجيوش ومقر القيادة العامة في عاصمة الخلافة قد ساعد ايضا على تحمل المسؤولية ، واحسب ان القيادة العامة لم تكن تنتخب قائدا ما لم يتحلَّ بهذه الصفة الادارية والعسكرية•وقائدنا قتيبة قد تحملها كاملة طيلة الاعوام الطويلة التي قضاها في النضال •

وفي احدى المواقف الخطرة عندما ارغم بخارى على قبول الحصار وخافوا منه ، تحمل مسؤولية كبيرة في خدعة كبيرة ربما كان يذهب ضحيتها • وقد ذكرها البلاذري ج ٣ص ٥١٧ (قال دعوني ادخلها فأصلي بها ركعتين • فاذنوا له في ذلك • فاكمن لهم قوما فلمـا دخلوا كاثروا أهل الباب ودخلوا فأصاب فيهـا مالا عظيما ••• الخ) فهو يطلب أن يدخل ليصلي ولكنـــه أوعز لكمين بجوار الباب أن يدخل بعده مباشرة ، وهي مخاطرة كبيرة ان يكون القائد بنفسه موجودا في وسط المعركة الدائرة عند الباب !! •

وقبوله للصـــلح وفق شروط يفرضها ، أو رفضـــه الصلح واصراره على استسلام بعض المدن ، وعقـــده للاتفاقيات مع أمراء وملوك ما وراء النهر ، لهي من الامور الخطيرة التي كان يأخذها

على عاتقه ويتحمل مسؤوليتها كاملة • ولم يكن له من معين سوى استشارته لقـواده واركان حربه وذلك مـا يدل على اهليتـه للقيادة وحنكته •

هـ ـ الضبـط الصـارم

اشتهر قتيبة بن مسلم بالضبط الشديد وليس ذلك بغريب على قائد فذ عارف بفنون القتال •

فقد كان الضبط العسكري احد أهم الامور التي ساعدته على الانتصارات السريعة ، اذ خلق الضبط من جنوده جنـودا اشداء وقوة عسكرية خطيرة •

وقد كان قتيبة أحوج من غيره الى الضبط العسكري في بلاد تعودت على الانتفاضات والردة عن الاسلام مرارا قبل قتيبة وحتى في عهده • هذا علاوة على ان جيشـه الذي لم يكن يتجـاوز (٤٥) ألفا في بلاد واسعة جدا وكثيفة جدا بالسـكان • وكانت جيوش أعدائه تفوق جيشه كثيرا ، ولا يستطيع أن يتغلب على تلك الجيوش بدون الضبط الصارم •

ولم يمارس قتيبة الضبط في جيشه فقط وانما مع سكان البلاد المحتلة لكي لا تجرأ على الردة بعد الاسلام او تثور عليه بعد انسحابه . وهذا ما فسره البعض بأنه قسوة أو كما وصف الاكاديمي باباجـان غفوروف قتيبة بانـه (الداهيـة السيـاسي والعسكري القاسي) •

ولولا ذلك الضبط لما تعودت شعوب بلاد ما وراء النهر التي كانت متناحرة وقاسية على النظام الذي قادها وهداها الى الاسلام

الذي اقبلت عليه وشاركت في الحضارة الاسلامية العربية باحسن ما تكون المشاركة ، وأعطت عطاءاً غنياً للمدنية الحاضرة من خلال الحضارة العربية الاسلامية .

لقد عامل العرب بضبط شديد كما عامل سكان المناطق المفتوحة ، فقد قضى على بني الاهتم لانهم كانوا ينشرون الفساد والبلبلة ويراسلون الحجاج سرا من وراء ظهره ، كما روى البلاذري (فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٢) وقتل القائد التركي الاعور لانه ارتد ثم اسر بعد ارتداده فرفض قتيبة الفدية وقال (لا والله لا يروع بك مسلم ابدا) ولولا شدة ضبطه لما تمكن من دفع جنوده الى حدود الصين . فقد شعر العربي بغربة شديدة في تلك الانحاء .

و ـ الكتمان

لقد استعان قتيبة على قضاء حاجاته بالكتمان كما جاء في وصايا الرسول (ص) اوكما قال الخليفة عمر (ع) (بكتمان السر تنال الظفر) وقتيبة النابغة العسكري لم يكن ممن تفوتهم فائدة الكتمان لتحقيق المباغتة التامة ، سيما وان قلة عدد قطعاته تطلب هذا الكتمان في ذلك البحر الزاخر من الاعداء .

وكما اسلفنا فان حديثه مع قائده المجشر بن مزاحم السلمي عندما كان الاثنان يفكران في التقدم نحو سمرقند ، وكيف انه أمر قائده بالتكتم وهدده بالاعدام ان تحدث حول الخطة الى احد . ان هذه الحادثة وتشدده في الكتمان حتى مع قواده لدليل على مدى اهتمامه بذلك .

ز - التعـــاون

لقد كان قتيبة مثالا للقائد الذي يؤمن بمبدأ التعاون ، وكان يطبق ذلك في كل مراحل قيادته . ففي معركة سمرقند وضع كمينا ونسق وتعاون مع حركات الكمين فاشترك بنفسه في تدمير الجيش الذي حصره الكمين ليلا . وعندما هوجمت مؤخرة الجيش عند عودته من رامنــــة استدار بأقصى سرعتــه فكان يدير معركـــة المؤخرة .

لقد تعاون مع خصومه الذين اسلموا وقاتلوا معـا للوصول الى الهدف المنشود وهو نشر تعاليم الاسلام. اما مع رؤسائه فقد كان مثالا للتعاون مع القيادة العامة في دمشق او قيادة جحفل جيوش الشرق في الكوفة الذي كان يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي .

ح - توخــي الهــدف

لقد كان قتيبة من القادة الذين لا يحيدون عن هدفهم ، وكان اذا قرر أمرا بعـد تقدير للموقف سليم ، فانه يسعى الى تطبيق ذلك القرار . ولم ينصرف يوما الى اللهو أو جمع المال أو الانتقام بل كان هدفه توطيد العدل ونشر الاسلام في بلاد ما وراء النهر .

كما انه لم ينجر الى معارك جانبية كما كان يريد خصومــه بقصد تحويله عن هدفه الاصلي . وتلك ولا شك صفة بارزة من صفات القيادة العسكرية تحتاج في تطبيقها الى الشجاعة والثقـة بالنفس والثبات والتوازن ، وهذه الصفات الاخرى كانت متوفرة فيه تماما .

ط ـ الاقتصاد بالقوة

مبدأ هام من مباديء الحرب ويسعى صاحب القوة القليلة الى الاهتمام بهذا المبدأ اكثر من اولئك المتفوقين بالعدد . والاقتصاد بالقوة لايعني زج قطعات قليلة في المعركة باستمرار بل استخدام ما يحتاج الى استخدامه دونما تبذير . فان عدم الأخذ بمبدأ الاقتصاد بالقوة يؤدي الى :

اولا ـ انهاك الاقتصاد الوطني .

ثانيا ـ تبذير الطاقات في غير مجالاتها .

ثالثا ـ انهاك القطعات نتيجة للاستخدام الكثير المتواصل .

رابعا ـ ضعف وهبوط المعنويات .

خامسا ـ كثرة الخسائر نتيجة زج قطعات لاموجب لها وتعرضها الى الضربات .

لقد استخدم قتيبة (٦٠٠) فارس شجاع في كمين سمرقند ولم يرسل اكثر من ذلك ، لان الزيادة على هذا العدد ،في رأيي ،كان يتعب قيادتها في معركة ليلية وفي هجوم راكب ، كما استخدم قوة صغيرة في مطاردته لنيزك ملك بادغيس في شمال افغانستان .

٢ ـ الصفات العقلية

أ ـ اصالة الرأي

لم يكن العرب ليعينوا واليا او قائدا مالم يتصف بأصالة الرأي وهذه الصفة شيء اساسي في القيادة ، سيما وان القائد سيكون بعيدا عن مقر القيادة وعليه ان يتصرف بحكمة وفطنة . وقتيبة كان من اولئك الذين اتصفوا باصالة الرأي السديد .

وقد تدرب على ذلك خلال ولايته للري ، فكان يسمع ويرى مايجري في خراسان المجاورة لولايته من غزوات لم تتصف الا بكثرة الخسائر والحصول على المغانم فكم من مرة عبر العرب المسلمون نهر جيحون وآبوا بالمغانم فقط دون نشر العقيدة . فدفعته اصالة رأيه الى خطة حكيمة جديدة وهي فتح بلاد ماوراء النهر ونشر تعاليم الاسلام بدلا من تكرار الغزوات وذلك منذ استلامه ولاية خراسان . ولهذا يقول الاكاديمي غفوروف (ومع مجيىء قتيبة الى خراسان بدأت مرحلة جديدة حاسمة لزحف العرب على ماوراء النهر) .

وهو ما سبق ان أدركه المستشرق ارمينوس ڤامبري في كتابه (تاريخ بخاري) اذ قال عنه (ولما كان قد عزم على ان يمضي في فتح هذا الاقليم ونشر الاسلام فيه ، لا ان يغير عليه وينهب مافيه ، فقد كان عليه اولا ان يسيطر سيطرة تامة على بلخ الجنوبية) .

ان اصالة رأيه جعلته يعتمد كثيرا على الحيلة والدبلوماسية لتفريق صفوف الاعداء فيقضي عليهم الواحد بعد الآخر .

وان اصالة رأيه جعلته أحيانا كثيرة يتجنب الحرب وسفك فيقبل بالصلح لكي لايشعر سكان المناطق المفتوحة بالقهر والعداء فينفرون من الاسلام كدين ومن العرب كاخوة .

وان اصالة رأيه قد قادته مرارا الى النصر عن طريق المفاوضات أو الاغراء أو الحيلة للوصول الى حل بدون قتال ، وتلك ولاشك تمثل (السوق الاكمل) كما يعبر عنها العسكريون وهو الانتصار بدون استعمال السلاح .

ب ـ الابـــداع

اولا ـ ان صفة الابداع من اهم الصفات التي يجب توفرها في القيادة الناجحة • والقائد الذي يبدع ويجدد في خططه يجعل خصمه في حيرة وعماء ويتعذر على الخصم معرفة خططه بينما يسهل ذلك اذا كان القائد مقلدا يتبع دائما خططا من نمط واحد •ومعظم القادة الافذاذ عبر التاريخ كانوا من المجددين المبدعين وقتيبة بن مسلم واحد من اولئك الافذاذ •

ثانيا ـ فخطته لفتح بلاد ما وراء النهر كانت ابداعا جديدا يختلف عن الغزوات التي جرت قبله ، فقد كانت خطة لنشر تعاليم الاسلام وتبديل معتقدات الناس وجمعهم ضمن الحضارة العربية الاسلامية • وخططه في نشر الاسلام كانت ابداعا فقد اسكن العرب مع اهالي المناطق المفتوحة لتعليم الدين • وهو اول من اسكن العرب في طاشقند وفرغانة وما يزال قسم منهم هناك ويسمونهم العرب وهم يتكلمون لغة عربية ولكنها ركيكة وقد ضاع نصفها وغلبت عليها الفاظ اجنبية كثيرة بحكم العزلة والاختلاط •

ثالثا ـ وخططه في الحرب كانت في تغيير مستمر غلبت عليها الحيلة والخداع والحـرب خدعة ، فكم من مـرة يتحرك في غير الاتجاه الذي يقصده ثم يعود وينقض على هدفه فيحير خصومه •

بل انه ربما يكون أول من ادرك اهمية حشد القوة النارية (المنجنيقات) لتدمير الاسوار بسرعة فقد حشد في الهجوم عـلى سمرقند (٣٠٠) منجنيق فدك اسوارها بعاصفة مـــن قنابل الحجارة •

رابعا ـ وهو أول من استعمل الفعلة (الهندسة) في نقب الاسوار بالحفر تحتها وكانت وحداته الهندسية مسندة بسيل غير منقطع من قصف المنجنيقات وذلك ما جرى مع سمرقند .

خامسا ـ وهو الذي ابدع في تنظيم المواصلات وارسال البريد بسرعة تناسب ركض الخيال على حصانه من مقره في مرو أو طاشقند الى الكوفة .

سادسا ـ وبعد معركة بيكند وجد ان السلاح الذي غنمه الجيش كبير جدا فامر بمصادرة الاسلحة من الجنود العرب وحرم لاول مرة ان يكون السلاح من ضمن الغنائم واخذ بتجميع السلاح بغية تشكيل وحدات عسكرية جديدة وذلك بعد نظر رائع أيضا .

ج ـ سرعة القرار

مع ان اخبار قتيبة قليلة وان المؤرخين القدامي لم يعنوا كثيرا بتسجيل غير صفات الشجاعة واصالة الرأي والاخلاص فاننا نجد على قلة اخبار قتيبة انه كان يتحلى بصفة القائد الذي يمكنه اتخاذ القرارات بسرعة وخصوصا في المواقف الحرجة .

وقد لاحظنا انه اتخذ قراره بسرعة عندما علم بزحف قطعات من طاشقند لفك الحصار عن سمرقند فاخرج كمينا قويا يمكن لهم على الطريق ويباغتهم ليلا .

وقد رأيناه عندما هوجمت مؤخرته في رامتنة وكيف انه اتخذ قراره بسرعة ليس فقط في نجدة المؤخرة وانما باشتراكه هو نفسه في معركة المؤخرة .

د ـ الحيلة والخداع

كان قتيبة من القادة الذين مارسوا الحيلة والخداع مع العدو • وفي تاريخ العرب العسكري ربما يأتي قتيبة بالمرتبة الثانية بعد داهية العرب عمرو بن العاص • وان ممارسة قتيبة لذلك الاسلوب جنبه الكثير من المتاعب ، وقلل كثيرا من الجهود والدمار وسهل له سبل الانتصار على خصومه •

كان يعتمد على الحيلة لكي يخدع عدوه وتسهل مباغتته وقد عمد الى ذلك في كثير من المعارك ، فكم مرة تظاهر بانه ينوي الزحف باتجاه ما بعد مسيرة يوم حيث يطمئن العدو الى اتجاه مسيره ثم يعود قتيبة فيغير اتجاه تقدمه ويضرب هدفه على غفلة •

وفي سجستان (اقليم كابل) بعد اتفاقه مع رتبيل ملك الافغان وقبول الصلح منه ، لم ينسحب فورا وانما زرع زرعا لكي يوهم خصمه بانه باق على الاقل حتى موسم الحصاد ، الامر الذي اضطر الملك على تنفيذ بنود الاتفاق بأمانة •

وعمد الى الحيلة والوقيعة بين خصومه لكي يفرقهم فيسهل له القضاء عليهم تباعا •

فقد اقنع عن طريق وكلائه ملك بخارى بان العرب لو انسحبوا من وراء النهر فان ملوك الصغد وفرغانة واشروسنة والشاش (طاشقند)سيقتسمون بلاده ولذلك من مصلحته انيعقد الصلح مع العرب لا ان يجمع ضدهم الجموع ؟ • وفعلا تم ذلك وبعد أن تفرقت جموع الجيوش الحليفة سيطر قتيبة على بخارى •

ولقد استدرج نيزك ملك بادغيس بالحيلة بسهولة بعد ان

ارتد وقاتل المسلمين وامتنع في الجبال الوعرة في شمال افغانستان. فالقى عليه القبض وأعدمه لكي يكون مثلا للآخرين .

هـ ـ بعـــد النظر

اولا ـ كان قتيبة بن مسلم ممن يتوخون هدفهم باستمرار فلا يحيد عنه . ولما كان هدفه هو نشر تعاليم الاسلام ، فانه لم يلتفت للمنافع المادية والزهو والخيلاء بقدر ما كان يهتم بهدفه الاصلي في بلاد ما وراء النهر وهو ادخال سكانها في دين العرب اي اقامة وحدة تامة في العقيدة والمصير المشترك في نضاله ضد العقائـــد الاخرى والاقوام التي تدين بها فيما وراء بلاد آسيا الوسطى .

لذلك نراه لم يلغ الامارات والممالك التي كانت قائمة ، فقد ترك حكم البلاد للخدات (الامراء) « حكامها » الاول على ان يشترك مع الامير في الحكم عامل عربي يأتي في المنزلة بعده » ذلك ما أقر به المستشرق ارمينوس ڤامبري في كتابه تاريخ بخارى ص ٦٧ . ولا شك ان غاية قتيبة كما ارى لم تكن مجرد ايجاد منصب لعربي بل كان هدفه من ذلك ان يقوم العربي بتعليم الدين الاسلامي وتوافق احكام الامير التركي مع العقيدة الجديدة طالما ارتضاها ذلك الامير وشعبه

ولا شك ان ذلك الاجراء يتصف ببعد النظر والحكمـــة ويؤدي في المستقبل الى ان يستسيغ القوم تعاليم الاسلام باسلوب هين دونما قهر واجبار بدلا من ان يلغي امارة الحكام ويستعيض عنها بالاحتلال والاستعمـــار الذي تأنفه الشعوب فتجعلـه يواجـه صعوبات لا حصر لها ولا اول لها ولا آخر .

ثانيا ـ لقد كان قتيبة اول من اسكن العرب فرغانة وطاشقند كما روى البلاذري في كتابه (فتوح البلدان ج ٣ ص ٥٢٩)واحسب ان غرضه كان اطلاع سكان تلك البلاد على عادات واخلاق وسجايا العرب الأصلية ، عن طريق المخالطة والاحتكاك اليومي ، فيعرفون أخلاق العرب عن كثب ويتعلمون دين العرب من العرب انفسهم ، وبذلك تخف حدة الاختلافات والمناحرات وتُدحض افتراءات الاعداء عن سيرة العرب وسلوكهم ، ويصحح ما سبق ان علق بأذهان تلك الشعوب عن غارات العرب وغزواتهم قبل قتيبة ، وليس من شك ان تلك السياسة كانت تتصف ببعد النظر والحكمة في ادارة المناطق المفتوحة . وقد آتت تلك السياسة ثمارها بعد حين من الدهر . وأرى في هذا الصدد ان انقل نصا مما ذكره المستشرق صاحب كتاب بخارى وهو غير مسلم ولكنه أقر واقعا اذ قال عن سكان مناطق الصين الغربية المسماة تركستان الصينية (وبالرغم من ان تعاليم النبي العربي لم تستطع ان ترسخ أقدامها في كاشغر وختن وترفان الا بعد مضي زمن طويل ، اذ لبثت البوذية والمسيحية ولهما اتباع عديدون بهذه المناطق لعدة قرون من بعد ذلك ، فهناك حقيقة مشهورة ، هي موضع فخر عند أهالي تركستان ، مفادها ان ترفان قد سارع اهلها الى الدخول في الاسلام أول ظهور العرب عندهم) . ومعلوم ان ترفان وختن وكاشغر في الصين وان أول ظهور العرب كان في عهد قتيبة بن مسلم ، فأي شيء يدل على بعد النظر أكثر من ذلك

التصرف الذي جعل الاسلام ينتشر في تلك البقاع النائية عن ديار العرب •

ثالثا ـ وفيما يتعلق بالحركات العسكرية فان بعد نظره قد دفعه الى توطيد الامن والنظام في خراسان وسجستان (شمال افغانستان) ، وبناء قاعدة أمينة قبل ان يستعد للمرحلة الحاسمة في عبور جيحون ، لان العبور لم يكن بالنسبة اليه مجرد عبور للغزو وانما كان يعني ادخال تلك الاقوام تحت لواء الاسلام والى الابد ، وقد نجح في ذلك ، فياله من بعد نظر صائب •

٣ ـ الصفات المعنوية

أ ـ الشجاعة

لا اظنني بحاجة الى الاسترسال كثيرا في ايضاح شجاعة هذا النابغة العربي العسكري والاداري • فقد تكلم كل من تصدى للكتابة عنه على شجاعته وهمته العالية وصموده تجاه المصاعب والاهوال • كان شجاعا في كل تصرف أتاه سواء في حركاته العسكرية أو في ادارته الصائبة للبلاد •

كان شجاعا في قبول المسؤولية عندما يتولى خراسان وسجستان في آن واحد ، في وقت كانت تعج خلاله تلك البلاد بالمشاكل السياسية والمعضلات العسكرية •

وكان شجاعا في قيادته للقطعات العسكرية ، حتى ان هذه الصفة كانت هي الغالبة لدى من وصفوه وعزوا النصر لشجاعته •

كان الناس في بلاد ما وراء النهر يعبدون الاصنام وكانوا

يعتقدون ان من يمس أصنامهم يهلك ، ولكن قتيبـــة اقدم على تحطيمها بيده ، فلما وجدوه لم يصب بشيء آمنوا بأعداد كبيرة .

وفي معركة ســمرقند خطط للكمين الذي أرسله لحصر النجدات التركمانية ، واشترك بنفســه في المعـركة الليلية لتدمير تلك النجدات التي اندفعت لفــك الحصـــار الذي ضربه على سمرقند ، وكان في غنى عن ذلك لو لم يكن قتيبة شجاعا مقداما .

وعند فتح بخارى أصر على ان يسمح له بأن يصلي فيهـا ركعتين ، ولكنه اضمر أمرا خطيرا وهو ان يجعل دخوله أبواب الاسوار ايذانا بمعركة حامية تنتهي بفتح المدينة العظيمة ، ولو لم يكن شجاعا مقداما لتهيب ذلك الموقف ولما زج بنفسه في قلب المخاطر فربما كان سيقتل أثناء القتال الذي دار عند الباب ، ولكن شجاعته دفعته الى ان يرتضي التضحية بنفسه في سبيل اقتحام الباب .

وحتى في نهايته فقد كان شجاعا اذ تحــدى سليمان بن عبدالملك الذي كان يضمر له ولغيره من القواد كل الشر ، فلم يستسلم كما فعل موسى بن نصير وطـارق بن زياد ومحمـد ابن القاسـم الذيـن اقتيـدوا الى الاسـر والهـوان ثم السم والقتل ، وفضل اما ان يعيش عزيزا كريما مع جلائل اعماله التي انكرها سليمان واما ان يموت أبيا شجاعا كأي جندي من جنود العرب .

ب ـ قـوة الشخصية

لا زالت قوة شخصيته واضحة لنا بعد أكثر من الف ومائتي عام ، فكيف كانت يوم كان بين جنوده ، وكيف لا يكون قوي الشخصية من يتولى ولاية الري (طهران) وهو في الثلاثين من عمره ، أو يتولى ولاية خراسان وافغانستان معا ، وقيادة الجيش فيما وراء جيحون ، في تلك المجاهل ووسط الصعاب ، ولو لم يكن على أحسن ما يكون من قوة الشخصية لما تمتع بأي اثر على جنوده وفيهم من يكبره سنا أو يزيد عليه تجربة أو مقاما بين عشيرته .

وحسبي ان اذكر حادثة تدل على قوة شخصيته وتأثر جنوده بها فقد ذكر صاحب الفتوحات الاسلامية عن المعركة التي حدثت بعد عودته من رامتنة في الصفحة ١٨٢ (ورجع قتيبة الى عبدالرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه ، فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا الى الظهر وابلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمز واتى مرو) .

ونرى ان وجوده في ميدان المعركة أدى الى تغيير في ميزان القوى اذ ارتفعت معنويات جنوده لوجوده ، أي لما لهم به من ثقة ولما له من قوة الشخصية المؤثرة في الاحداث .

ج ـ الثقـة بالنفس

كان قتيبة ممن يثقون بأنفسهم . وكانت كل تصرفاته تدل على ثقة كبيرة بالنفس . لقد وثق بنفسه وفي انه يعد خطة عظيمة لفتح بلاد ما وراء النهر ، ولذلك سار مجدا في توخي هدفه

وتطبيق خططه لانه كان يثق بنفسه وبصحة خططه تلك . بل من ثقته بنفسه انه عزم على التقدم نحو الصين . وقد فعل ذلك ونجح في عقد صلح مشرف لجانبه ، بل وثق في نفسه في كل المعارك الاخرى لفتح بخارى وسمرقند وطاشقند وفرغانة ومنطقة جبال تيان شان والسلاسل الجبلية الوعرة المتفرقة عن هضبة بامير .

وأخيرا فان ثقته بنفسه قادته الى تحدي الخليفة الجديد الموتور سليمان بن عبدالملك الذي لم يكن قتيبة يرى بانه صالح لتولي الخلافة .

ولعل أحسن دليل على ذلك في القتال ، فقد تمكن العدو من حصره لمدة شهرين عند تقدمه نحو بخارى حتى ان الحجاج بن يوسف الثقفي خشي عليه ودعا الناس الى الصلاة لنصرة قتيبة . ولكن قتيبة لم يكن ليفكر في غير النصر فلم يدب الضعف الى نفسه ، ورفض الاستسلام للجموع الغفيرة التي أحاطت به وبجيشه . فدفع بفرقة الازد فقاتلت حتى اندحرت ثم تقدم نحو فرقة بني تميم وقال لهم (يا بني تميم يوما كأيامكم) فاندفعوا تحت تأثير النداء وقوة شخصية القائد وثباته وتوازنه فانجلت المعركة عن اندحار العدو . ولو لم يكن له ثقة بنفسه وبخططه لما أصر على الصمود والنصر وقد كان له ذلك .

د ـ الثبات والتوازن

كان قتيبة ثابت الجأش قوي العزيمة متوازنا في الملمات ، وتلك ولاشك من أهم الصفات التي يفترض توفرها في القائد ، ولا نحسب ان قائدا منتصرا كان يفتقد تلك الصفات .

فكم من مرة تمرد حكام الاقاليم فما هدَّ ذلك من عزمه وتوازنه ، وكم من مرة جابه الصعاب والمعضلات العسكرية سواء عندما طوقوه في بخارى ، أو عندما زحفت جموع الاعداء لفك الحصار عن سمرقند ، أو عندما طاردت انسحابه من رامتنة جيوش جرارة ، ولكنه جابه كل تلك المواقف بعقل عسكري نير وثبات وتوازن في الملمات • وعندما اخبره جاسوسه تنذر في معركة بيكند جنوب بخارى كذبا بوفاة الحجاج وعزله عن ولاية خراسان لم يبدل من خطته في المعركة بل ظل على توازنه وثباته واعتقل المفسدين والمشوشين وعاقبهم واستمر في معركته حتى النصر •

هـ ـ الاخلاص

ربما كانت صفة الاخلاص أهم الصفات الواضحة الجلية التي اتصف بها هذا الفتى العربي طيلة توليه الولاية سواء ، في الري أو خراسان أو سجستان أو في قيادته للجيوش والحملات في بلاد ما وراء النهر •

بل ان اخلاصه للنظام والقضية قد أطال مدة بقائه أكثر من أي والٍ أو قائد عرفه التاريخ العربي • ومن الصعب أن تتصور انهم كانوا قد أبقوه قائدا لمجرد عبقريته العسكرية دونما اخلاص ، سيما وانه لم تكن لتربطه لا بالامويين ولا بالحجاج رابطة قربى أو سند من عشائرية أو توافق في مصلحة • وانما بقي على رأس قطعاته بسبب عبقريته ودرايته العسكرية وادارته السليمة واخلاصه للقضية التي يقاتل من أجلها •

٤ ـ الصفات البدنية

أ ـ العمـــر

ولد قتيبة بن مسلم في العراق عام ٤٩ هجرية وقاتل وهو ابن سبع عشرة سنة وانتخب لولاية الري (طهران) وهو في الثلاثين من عمره ، وتلك ولاشك سن تمكنه من القيام بنشاط ملحوظ في التنقل والدوام والاختلاط بالناس وتفقد أحوالهم ، مما يجعله قادرا على معـرفة رغبات الناس وأفكارهم ومشاكلهم ، فلو كان ممن تقدمت به السنون لما تهيأ له ان يختلط وينتقل ويكرس وقته للناس . وفي قيادته لجيش المشرق كان قد جاوز الثلاثين ، لذلك كان عمره مما ساعد على تنفيذ خططه الطموحة في فتح تلك البلدان النائية الوعرة ذات المصاعب الجمة .

ب ـ الصحـــة

لم نر في الاخبار التي تحدثت عن سيرة قتيبة بن مسلم انه اعتل أو كان عليلا في يوم من الايام ، بل ان ســـنه وهـــو في الثلاثينات تجعلنا نجزم انه كان في صحة جيدة وذلك ما اهله الى ذلك الدور الفعال ، وذلك النشـــاط الهائل في ميدان المعارك ، وخوض غمار الوغى طيلة فترة الثلاث عشرة سنة التي قضاها في النضال من أجل العروبة والاسلام .

ولم تكن حملاته على بلاد ما وراء النهر ، وسلاسل جبال تيان شان ، وداخل حدود الصين ، لتسمح له بالنجاح لو لم يكن

بطلنا في أتم صحة وعافية ، وبالتالي في كمال العقل والحكمة التي أدت الى تلك النتائج الباهرة .

ان اشتراكه في القتال في عدة مناسبات ، سواء في بخارى أو سمرقند لدليل على صحته وقابليته البدنية الممتازة ، التي هي من الصفات الحميدة الواجب توفرها في القائد الناجح .

الفصل الخامس

اسلوبه في ادارة المعارك

١ - كان قتيبة بن مسلم احد عباقرة العرب العسكريين ومن انجح الولاة الاداريين .

وقد وصفه ابن دحلان صاحب الفتوحات الاسلامية بانه كان (فحل ولاة الدولة الاموية) .

ولقد كانت اساليبه في ادارة المعارك متغيرة حسب تبدل المواقف العسكرية ، فلم يطبق اسلوبا معينا باستمرار ، انما كان يبدله حسب طبيعة الارض ، وقوة الخصم ، وقوة جيشه ، والتجهيزات العسكرية المتوفرة للطرفين ، وحسب ظروف المناخ ومعنويات المتحاربين والموقف السياسي .

٢ - لقد أولى قتيبة مبادىء الحرب المهمة التالية أهمية خاصة في جميع معاركه ، وذلك مكنه من النجاح واتاح له الفرصة للتغلب على الخصوم ، والبروز في تاريخنا العسكري كفذ صاحب مجد لامع شامخ ، ونضال مرير ، قل مثيله طيلة (١٣) عاما من الزحف ، لم يدخر فيها وسعا ، ولم يبذر جهدا ، كما لم يقع فيها عليه لوم أو عتاب ، بل أتى بالمعجزات العسكرية وفصل الخطاب :

أ ـ حشد القوى

ب ـ التعـرض

جـ ـ الأمـــن

د ـ المباغتـــة

هـ ـ سرعة الحركة

و ـ التعـــاون

ز ـ الاقتصـاد بالقـوة

ح ـ الامور الادارية الجيدة

٣ ـ وقد كان قتيبة ذا عقلية حذرة ، ومخيلة بالغة الذكاء ، وواسع الحيلة ، ولدرايته وحسن تدبيره في الامور الاداريـــة العسكرية ، وادارة السكان،فقد اهتم بالامور التالية اكثر من غيره من القادة ، ومزجها مع مبادىء الحرب فكانت صفات بارزة في ادارته للمعارك وهي :

أ ـ الأمـــن والحـذر

ب ـ الكتمــــان

جـ ـ الحيـــلة

د ـ الخداع والتضليل

هـ ـ الابداع والتجديد في الخطط وخلق مواقف جديدة معجزة للعدو • وفي مجال الخداع والحيلة والتضليل لا يدانيه أو يتفوق عليه سوى القائد الداهية عمرو بن العاص السهمي • وقد رأينا في سير المعارك وتفصيلها بروز هذه الصفات وتطبيق قتيبة لمبادىء الحرب التي ألمعت اليها اعلاه •

٤ ـ وفي الامثلة التالية اشارات لاساليبه في ادارة المعارك التي حرصت على تفصيلها في متن ومطاوي الكتاب :

أ ـ ففي مجال الامن ، كان لا يتحرك الا من قاعدة أمنية ولا يقامر ولكنه كان يغامر مغامرة محسوبة • لقد قرر ان يوطد الأمن في شمال افغانستان قبل ان يعبر نهر جيحون (اموداريا) • وكان متحوطا يوصي بالكتمان باستمرار ، واستخدم التقدم والانسحاب الليلي لكي يخفي حركاته عن العدو •

ب ـ وفي مجال حشد القوى : لم يدخر وسعا في زج كتائبه وحشدها بكل قواها في المكان والاتجاه الحاسم ، فلم يبعثر قواه في معارك جانبية • ويبرز ذلك في معركة سمرقند ، وفي زحفه على الصين حيث منع عودة أي انسان للخلف ووضع حرسا يمنع العائدين من عبور جيحون •

جـ ـ وفي مجال التعرض نشاهد ان جميع معاركه قد اتسمت بالتعرض • فلم يتوقف عن الهجوم طيلة (١٣) عاما ، ولم يسمح لنفسه ان يكون في موقف المدافع اطلاقا ، وقد طبق قتيبة هذا المبدأ أكثر من أي مبدأ من مبادىء الحرب •

د ـ المباغتة : طبق هذا المبدأ باستمرار • وان من كانت عقليته واسعة ودهاؤه وحيلته معروفين لابد وان يلجأ الى المباغتة ، وأن تكون هذه المباغتة من طباعه • وسنرى انه باغت بخارى بعد ان اظهر للمدافعين عنها انه يتحرك عائدا الى مرو بعد فتحه لخوارزم • وباغت النجدات التركية التي حاولت فك الحصار عن سمرقند •

هـ - وفي مجال سرعة الحركة : لقد كانت كل حركاتـه سريعة وبشكل مذهل خصوصا وانه قد حسّن الصنوف ، سواء الهندسة لتسهيل حركته بنصب الجسور وتمهيد الطرق وازالـة العوائق ، أو استخدام الخيالة ، وواضح ذلك من تحركه عائدا من خوارزم الى مرو واستدارته بسرعة نحو بخـارى • وكذلـك في تحركه السريع للقضاء على النجدات التركية لفـك الحصار عن سمرقند • ان سرعة حركته قد عجلت بالتقدم مئات الكيلو مترات في فترة قصيرة • ويتضح ذلك اذا قسنا المسافة من مرو الى كاشغر أو الختن فانها (١٤٠٠) كيلو متر وقد انجزت في مدى (١٣) عاما بينما المسافة من طرابلس الى مضيق جبل طارق ١٨٠٠ كيلو متر قد انجزت بـ ٦٣ عاما • اذ بدأ زحف عبدالله بن أبي سرح عـام ٦٤٦ م من طرابلس ووصل موسى بن نصير الى طنجة عام ٧٠٨ م والمسافة من جبل طارق الى بواتيه (١٦٠٠) كيلومتر لم تنجز في (٢١) سنة مع اندحار (عبر العرب بقيادة طارق بن زياد جبل طارق عام ٧١١ م وصدهم الاوربيون في بواتيه عام ٧٣٢ م) • وحسبي ذلك دليلا على سرعة حركة جيش المشرق وقائده قتيبة (لاحـظ الخريطة رقم ٧) •

و - التعاون : كان قتيبة مثالا للتعاون سواء مع قائده الأعلى الحجاج بن يوسف ، أو مع أركان حربه ، أو قواد التشـكيلات التابعة له • وان بقاءه هذه المدة الطويلة في قيادة التشكيلات ، لدليل على انه من المتعاونين على احسن حال • وقد برز ذلك في

معارك سمرقند وتعاونه مع الكمين ، وبرز من تعاونه مع الامراء والملوك الذين اسلموا وكانوا حلفاء له في المعارك •

ز ـ الاقتصاد بالقوة : طبق قتيبة هذا المبدأ ، فلم يبذر قواه ، وقد رأينا ذلك سواء في افراز قوة خاصة بقيادة اخيه بعد اول عبور لنهر جيحون ، أو في مطاردته للملك نيزك ملك بادغيس في وادي خولم • أو في معركة الكمين لتدمير النجدات التركية شرقي سمرقند ، فلم يرسل أكثر من ٦٠٠ خيال •

ح ـ الامور الادارية :

كان قتيبة اداريا ممتازا ، وقد هيأ لجيشه كل مسببات النصر• ولعل من اهم الأشياء التي تنطوي تحت هذا العنوان هي :

اولا ـ دراسة المشاكل قبل المعارك •

ثانيا ـ وضع الخطط في مرحلة سابقة •

ثالثا ـ تكديس التجهيزات العسكرية والأسلحة (وقد مر بنا انه منع اعتبار الأسلحة من الغنائم لكي يستفيد منها لتشكيل قطعات جديدة ، ولم يفعل ذلك أي قائد عربي آخر) •

رابعا ـ الادارة الجيدة والحازمة للمناطق المفتوحة ، وسياسة ابقاء الامراء والحكام في مناصبهم لادارة بلادهم ، طالما قد أسلموا فأصبحوا اخوانا في العقيدة ، لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب•

خامسا ـ الضبط العسكري الصارم مع قطعاته ومع سكان المناطق المفتوحة ، ولو لم يفعل ذلك لتعذرت عليه السيطرة على تلك المناطق الواسعة ، وعلى تلك الشعوب المختلفة ، ذات الطبائع

الخشنة ، والتي تتصف بالشجاعة والفروسية والاباء بشكل مثير وموجب للاحترام .

ولبعد المسافة وطول خطوط مواصلاته ، كان يتعذر عليه دفع جنوده الى مزيد من التقدم،لولا الضبط الشديد الذي اتصف به ، والذي ظهر أحيانا بشكل يوصف بالقسوة التي لم يقصدها قتيبة .

ان العربي شديد الحنين لوطنه ، ويمتاز بحس مرهف،ويشعر بالغربة في غير موطنه . ألم يقل البطل ضرار بن الأزور عن بانقيا ، وهي منطقة الكوفة بالعراق ، مع انها ليست بعيدة كبعد طاشقند عن الحجاز :

أرقت ببانقيا ومن يلق مثلما
لقيت ببانقيا من الجرح يأرق

وفي القادسية قال بشر بن ربيعة الخثعمي ، وقد شعر بالغربة والحنين ، وحتى ناقته صارت تحن الى اهلها . مع ان العذيب (الكوفة) هي اقرب المناطق للحجاز :

ألمّ خيال من اميمة موهنا
وقد جعلت اولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها
حجازية ان المحل شطير
ولا غرو الا جوبها البيد بالدجى
ومن دوننا رعن اشم وقور

نحن بباب القادسية ناقتي

وسعد بن وقاص عليّ أمير

يصف التلال بأنها جبال (رعن اشم وقور) فكيف به لو رأى سلاسل جبال تيان شان وبامير وهندكوش ؟..

على ان ابن مفرّغ وصل مع الجيش الى قندهار في افغانستان، ووصف الطريق الى الهند والخسائر ، ولكنه كان يفزع من ان تكون منيته في بلاد نائية فيلفه النسيان ، فقال :

كم بالجروم وارض الهند من قدم

ومن سرابيل قتلى لا هم قبروا

بقندهار ومن تكتب منيته

بقندهار يرجّم دونه الخبر

سادسا - نقل العوائل العربية واسكانها في المناطق المفتوحة لعدة أسباب ، منها لكي تستقر الحاميات بسبب وجود عوائلهم معهم ، فلا تعود منسحبة الى مرو قبل كل شتاء . ومنها احتكاك العرب بسكان المناطق الاسلامية الجديدة ، وتعليمهم الدين الاسلامي ، علاوة على ان الاحتكاك يسبب التزاوج والتجارة والتفهم الحسن ، الامر الذي يبدد الشكوك ويؤدي بالتالي الى انتهاء التوتر .

سابعا - تنظيم البريد بشكل رائع ، اذ كان يصل الى الكوفة ويعود منها خلال اسبوع .

ط - الدهاء والخدع والتضليل . كان ذلك اسلوب قتيبة في تفريق خصومه وضربهم الواحد بعد الآخر ، كما كان اسلوبه

في معظم معاركه ، وقد رأينا ان هذا الدهاء قد جعله يباغت عدوه عدة مرات وينصب كمائن جيدة ، ويغير اتجاه مسيره فجأة لكي يضلل خصمه ، كما رأينا انه فتح بخارى بحيلة ، بحجة ان يسمح له بالصلاة فيها ولو ركعتين ، كما قضى على الامير المرتد نيزك بعد ان استدرجه بمعسول الكلام .

ى - وفي مجال الكتمان كان قتيبة معروفا بهذه الصفة ، ولذلك فقد طبق مبدأ الأمن تطبيقا جيدا . ولولا كتمانه لنواياه لافتضحت خططه . وقد مرّ بنا ان أبرز ما سجله التاريخ عنه كتمانه لخطته في غزو بخارى والصغد بعد الانتهاء من خوارزم وحديثه مع ضابط ركنه بهذا الصدد .

ك - الابداع والتجديد : لقد كان قتيبة ذا عقلية مبدعة مجددة ويبرز ذلك بالامور التالية :

اولا - لم يتبع اسلوب القتال الذي كان يجري قبل توليه ولاية خراسان بالقيام بغزوات بل قرر فرض النظام والأمن جنوب جيحون لكي يحشد كل قواه ويقتصد بها في المعارك شمال النهر.

ثانيا - اتبع اسلوب التحالف مع حكام البلاد والاستفادة من قواهم العسكرية في دعم الجيش العربي .

ثالثا - الغى اعتبار الاسلحة من الغنائم وصادرها جميعا لكي يستفيد منها في تشكيل قطعات جديدة .

رابعا - نظم البريد السريع اذ كان يصل الى الكوفة ودمشق بسرعة خيال يركض هيذبى أو خببا .

خامسا ـ نظم صنف الهندسة لفتح الطرق وعمل الجسور وازالة الموانع •

سادسا ـ اسكن العوائل العربية فيما وراء النهر •

سابعا ـ قوّى صنف الخيالة بتبديل الركاب الخشبي وجعله حديديا لذلك اصبح ثبات الفارس العربي على سرجه تاما • وكان المهلب بن ابي صفرة أول من فكر وعمل ذلك الا ان قتيبة توسع فيه •

ثامنا ـ عزل النقاط الحصينة والمدن المهمة عن المواقع العسكرية الاخرى الساندة لها ، وذلك ما جرى مع بخارى قبل الهجوم عليها ، اذ سيطر سيطرة تامة على كل المواقع المحيطة بها ، ومن ثم اقتحمها وهي غير قادرة على الصمود ، وبدون مساندة من خارج الاسوار •

٥ ـ ان كل اساليبه في ادارة المعارك ، واساليب غيره الناجحة ، لا يتيسر لها النجاح ما لم يكن القائد يتصف بالشجاعة : الشجاعة في الاقدام ، والشجاعة في اتخاذ القرار ، والشجاعة في مواجهة المواقف الحرجة ، والشجاعة في تحمل المسؤولية ورباطة الجأش في تقدير الموقف تقديرا سليما ، واتخاذ القرار الصائب • وهذه الشجاعة التي اتصف بها قتيبة بشكل مثير هي التي مكنته من تطبيق اساليبه الناجحة في ادارة المعارك • لقد كان قتيبة في نزاله مع الخصوم ، يشبه تماما البطل العربي جحدر بن ربيعة ، الذي أمره الحجاج ان ينازل أسدا جائعا وهو مكبل فيما عدا يده

التي تحمل السيف . وعندما واجه الاسد الهصور الجائع قال :

ليث وليث في مجال ضنك كلاهما ذو قوة وسفك
وصولة وبطشة وفتك ان يكشف الله قناع الشك
فانت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته ، فكبر الناس المتفرجون وكان منهم الحجاج بن يوسف الذي قال له : لله درّك ما أنجدك .

فاصبحت تلك الجيوش التي نازلها قتيبة بن مسلم فعلا في قبضته وملكه (أي الدولة العربية الاسلامية) .

الدروس المستنبطة

١ ـ أهمية الاستقرار السياسي

لاحظنا من سير المعارك التي دارت رحاها بين الجيش العربي وجيوش ممالك بلاد ما وراء النهر ، ان النصر كان للطرف المستقر سياسيا . فالعرب كانت لديهم الوحدة السياسية ، وكانت لهم القيادة الموحدة ، وكان لديهم الشعب العربي والاسلامي الذي آمن بعقيدة واحدة ، وسعى للجهاد في سبيلها ، واعتبر النصر اولى الخطوات الواجبة نحو السعادة والمستقبل الزاهر . بينما كان يقابل ذلك تفرق وتمزيق واضح في سياسات الدويلات المتناحرة ، ولم تكن لهم قيادة موحدة ، بل قيادة تستنجد عند الحاجة بالجيران ، ولم يكن هناك الشعب الموحد ، أي لم تكن لدى جنودهم عقيدة تشدهم وتدفعهم نحو الاستشهاد ، كما كان عليه جنود العرب المسلمين . ولا شك ان هذا العامل قد غير موازين القوى في غير صالح جيوش بلاد ما وراء النهر ، أو كان بمثابة الجنرال قتيبة الثاني ، الذي عمل لمساعدة قتيبة الاول بن مسلم الباهلي . وهو درس كبير ليت عرب اليوم يدركون اهميته ، ونحن في محنة تآمر خطيرة على الامة العربية ، ولعل اخطر ماتهدف اليه المؤامرة ، هو ابقاء العرب مفرقين مشتتين دويلات متناحرة ، تماما كما كان عليه سكان بلاد ما وراء النهر حين غلبهم قتيبة ، أو كما كان عليه عرب الاندلس من تفرق يوم غلبهم فرديناند وايزابيلا .

٢ ـ أهمية الاعداد للمعركة والاستناد الى قاعدة أمينة

دخل العرب في عهد قتيبة بن مسلم مرحلة حاسمة في الصراع الدامي لتقرير مصير بلاد ما وراء النهر • فقد عمل هذا القائد العربي على توطيد الامن والنظام غرب جيحون ، واتخذ قاعدة أمينة في مرو ، هيأ فيها كل ما كان يتطلبه ويحتاجه الجيش من شؤون ادارية ومواد غذائية وتجهيزات ومعسكرات . واعتنى بتدريب قطعاته واراحتها شتاء وتقويتها (الحيوانات) ، قبل موسم الحركات الذي كان يبدأ عمليا في كل ربيع • فتاتل نتيجة لذلك بقطعات مجهزة أخذت راحة كافية ودربت تدريبا راقيا • وفسح المجال لتدريب هيئات الركن لوضع الخطط الناجحة ، بينما كان الطرف الآخر لا يهتم بسوى اختلافاتهم المحلية ، وثاراتهم ونعراتهم العشائرية ، والاقليمية ، الامر الذي أدى الى دحرهم الواحد بعد الآخر • لقد رأينا قتيبة القائد البارع ينسحب كلما حل الخريف لاراحة قواته في القاعدة الامينة ، ولكي يتجنب الشتاء القاسي والثلوج الوفيرة التي لا يقوى العربي مهما كانت تجهيزاته على تحملها ، ولا ريب ان تصرف القائد هذا قد أدى الى ثقة جنوده به ، والى ابقاء معنوياتهم عالية كما أدى الى الاقتصاد بالقوة وتجنب خسائر لا موجب لها • وما كان له ان يكسب ذلك لولا استناده الى قاعدة امينة ، واتخاذ كل الاستعدادات للمعركة الطويلة •

٣ ـ ثقة الجنود بقائدهم

يبدو واضحا من الاستعدادات الذي ذكرناها اعلاه ، ومن

ممارسات القيادة في الحفاظ على راحة الجنود ، وتزويدهم بكل الاحتياجات العسكرية التي تتطلبها المعركة ، من سلاح واسناد وشؤون ادارية ومعنوية . ان الجندي العربي كان أكثر ثقة بقيادته من جنود جيوش بلاد ما وراء النهر .

وقد لاحظنا مدى اعتزاز الجنود بقائدهم وثقتهم به في معركة الانسحاب من رامتنة أو من معركة الكمين خارج ساحة حصار سمرقند . ومن ولاء الجنود واندفاعهم لتنفيذ الواجب في معركة بيكند جنوب بخارى ، عندما تمكن العدو من قطع طريق انسحابهم . بينما لم تتوفر تلك الثقة المطلقة في صفوف الاعداء ، ولذا كان نصيب العرب النصر ونصيب خصمهم الانخذال .

٤ ـ ايمان القائد بالنصر

لقد كان قتيبة بن مسلم يتصرف دائما على انه القائد المنتصر، وكان ايمانه ذلك ناجما عن ثقته المطلقة بالعقيدة الاسلامية ، علاوة على انه لم يكن من طراز القادة التقليديين، الذين يرفعهم الى القيادة نسبهم وحسبهم حسبما كانت عليه العادة في جيوش بلاد ما وراء النهر . فقد كان يمثل القائد الكفوء بينما كان خصومه من القادة يمثلون ابناء الملوك والامراء والمحاسيب الذين رفعهم الولاء والقربى اكثر مما رفعتهم المقدرة والكفاية والشجاعة واصالة الرأي والدراية العسكرية وسعة الاطلاع .

٥ ـ أهمية المعنويات في المعركة

لقد لاحظنا من سير المعارك الطاحنة التي دارت رحاها حول بيكند وبخارى وسمرقند ان الجندي العربي كان يتمتع بمعنويات

عالية جدا بتأثير من معتقداته فهو يرى ان الاستشهاد غاية ولو انه استشهد مبكرا لكان ذلك ادعى لسعادته في الآخرة .

وكان الجندي العربي يرى ان الاستشهاد والموت هو الاخلاص للواجب لذلك لم يكن شخصا اعتياديا في حومات الوغى بل اسدا هصورا تنهار لصولته اقوى الرجال وتنهزم امامه جموع وهو فرد ويقتحم الصعاب التي لا توكل الا الى عدد عديد من الرجال .

٦ ـ أهمية التماس بالقطعات

ندر ان نجد قائدا ناجحا عبر التاريخ من دون ان يكون له تماس مباشر بقطعاته اذ انه بحكم تماسه واقترابه من قطعاته واشتراكه معهم في المعركة يكون اكثر من خصمه القائد المقابل له على معرفة الموقف العسكري فيتصرف آنيا بما يغير نتائج المعركة لصالحه ، علاوة على ان وجوده بين جنوده يعطيهم دفعا هائلا وقوة معنوية تكتسح الخصوم وكل الصعاب في المعركة .

وقتيبة بن مسلم وقادته الادنى منه رتبة كانوا كذلك ، كانوا جميعا في تماس مع القطعات وكانوا ينشدون الشهادة ويفضلون الموت بشرف على الحياة في ظل الاندحار . وقد تكرر ذلك في جميع معارك قتيبة فيما وراء النهر وفي معظم معارك العرب في صدر الاسلام الذي مثل اوج مآثر الامة العربية ورسالتها الخالدة الى الامم الاخرى .

٧ ـ أهمية المباغتة والخداع

لما كان قتيبة بن مسلم من اشد واكثر القادة العرب حفاظا على الكتمان وانه كان يتكتم في خططه ونواياه فانه من دون شك كان

يقوم بذلك لكي يباغت خصمه اذ ان المباغته صفة او عمل مقترن بكتمان يسبقه او بخدعة او تضليل .

وفعلا كان قتيبة كثير الاعتماد على المباغتة والخداع والتضليل يضلل خصومه ويجعلهم يتجهون بتفكيرهم باتجاهات أخرى ، فيضرب هو ضربته بالاتجاه الذي كان يخطط له بكتمان ، لقد عقد صلحا سريا مع ملك خوارزم على ان يتقدم قتيبة نحو خوارزم ويقوم الملك بتجنب القتال وعقد الصلح معه بينما كان الغرض ان يصل الى خوارزم وينقض على خصوم الملك بقيادة اخيه ليقضي عليهم خدمة للتحالف السري ، فقدكان قتيبة يؤمن بضرورة دعم الاصدقاء والحلفاء وتوطيد الحكم والنظام في بلاد ما وراء النهر عن طريق ابنائها وانظمتها القائمة بعد ان تدخل في الدين الاسلامي وتعاون العرب في الجهاد .

ويروي البلاذري في ص٤٩٣ انه بعد اتفاقه مع ملك الافغان ، باشر قتيبة بزرع الارض لكي يوهم خصمه بأنه باق وغير مرتحل ، لكي يجبر الملك على تنفيذ بنود الاتفاق بأمانة ، وبعد ان نفذ الملك ارتحل قتيبة الى مرو .

وفي بخارى كما يروي البلاذري ايضا ص ٥١٧ باغتهم بعد خداع ، اذ اصر على طلب الصلاة ولو ركعتين ، ولكنه أعد من يقتحم باب السور عندما يفتحونها له ليدخل للصلاة . وفعلا حدث ذلك ، ودار قتال عند الباب ، فاقتحمها العرب واحتلوا المدينة .

ولم تنفع المطاردة العنيفة للملك نيزك في جبال شمال افغانستان الوعرة ، وفي منطقة خولم ، فاضطر قتيبة الى استعمال الخديعة لايقاعه في شباكه، فاستدرجه بوعود وكلام معسول حتى قبض عليه .

ان اسلوبه ، في الدهاء السياسي ، وتفريق ملوك ودول ما وراء النهر ، قد عوضه عن جيش اخر كان سيحتاجه لو لم يستخدم الخداع والمباغتة .

٨ ـ ضرورة حشد القوى

كان قتيبة ممن يؤمنون بضرورة حشد القوى في المعركة ، وكان يطبق ذلك باستمرار .

فان اقامة قاعدة أمينة في مرو ، وتطبيق الامن والنظام جنوب وغرب جيحون (اموداريا) ، كانت بحد ذاتها عملية تؤدي الى الاقتصاد بالقوة غرب وجنوب النهر لكي يتهيأ له حشد كل القوى في هجومه العاصف عبر النهر .

وفي هجومه على سمرقند حاولت حاميتها الذود عنها وراء الاسوار الحصينة ، كما حاول جيش جرار فك الحصار عنها ، الا أن قتيبة حشد كل قواه ، وبأكبر قصف منجنيقي ، وبالكتلة (٣٠٠ منجنيق) مع عمل هندسي (فعلة) مركزة ، لفتح ثلاث ثغرات تحت الاسوار ، فانهارت أسوارها ودخلها فاتحا . ولو لم يحشد عليها كل قوته لاستعصت كما فعلت سابقا .

٩ ـ أهمية التدريب والقابلية البدنية

كان للتدريب الراقي الذي يمارسه الفرسان العرب ، وانتقاء الانواع الاصيلة الجيدة من الخيول ، وتدريبها علـى القتـال ومطاوعة الفرسان ، والركض بأنواعه والزوغان والطفر ، وكذلك تدريب المشاة على الرمي والمنابذة : أي المنازلة بالسيف ، وايجاد صنوف اختصاصية كصنف المنجنيق (المدفعية) ، وصنف الخيالة ، وصنف الفعلة (الهندسة) ، والنبالين رماة السـهام ، وجنـود الحبال (الحبالين)، الذين يرمون بالحبال على الأسوار لتسلقهـا تحت اسناد رماة السهام في المعارك الطاحنة ، وعندما يختلط البعض بالبعض ولا يعرف النظام يقال (اختلط الحابل بالنابل) ، وهو مثل معروف للعراقيين حتى الان. ان هذا التقسيم والتدريب المستمر لهذه الصنوف على التعاون فيما بينها ، والعناية بصحـة الجنود والحيوانات ، قد جعل من ذلك الجيش قـوة عسـكرية خطيرة لا تقهر ولا تصد ، ولعل ذلك هو سر عبقرية قتيبة ونجاحه.

وكان لمبادىء الدين الاسلامي الحنيف وأحاديث الرسول (ص) ، الاثر الهام في الحفاظ على الصحة واللياقة البدنية ، وذلك بما امرت به من صلاة وامتناع عن المحرمات وشرب الخمـور والعنـاية بالسلاح والخيل والاعداد للمعركة (واعدوا لهم ما استطعتم مـن قوة ومن رباط الخيل ..).

الفصل السادس

الفتوحات العربية والحضارة

لقد أدى نجاح الحركات العسكرية العربية في بلاد ما وراء النهر ، الى انتشار الدين الاسلامي واعتناق شعوب تلك البلدان للعقيدة الجديدة ، شأنهم في ذلك شأن البلدان الاخرى كأفغانستان وايران وتركيا والهند الغربية واسبانيا ، ولما كان الاسلام يفرض حقوقا وواجبات بالتساوي على كل المسلمين ، فقد اصبحت البلاد العربية وتلك الاقطار في وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية متكاملة ، تفاعلت فيها جهود وطاقات ومواهب العرب وتلك الشعوب ، في انضاج اعظم حضارة انسانية ذات قيم اخلاقية ، تزخر بالحيوية والتسامح والازدهار ، وتتمخض كل يوم عن انتاج حضاري جديد ، وابداع فني وانساني مجيد ، وهي الحضارة العربية الاسلامية .

ولم تكن الحضارة العربية الاسلامية ذات صفة اقليمية معينة ، أو فترة زمنية محدودة ، كما لم تكن انطوائية معزولة عن الحضارات الاخرى ، بل اقتبست النافع الجيد والجانب العلمي والانساني من الحضارات الاخرى التي سبقتها ، وهضمتها وخلطتها بالنتاج الحضاري للعرب والشعوب الاسلامية ، فكونت الحضارة العربية الاسلامية ، التي مثلت رسالة الامة العربية الى

العالم ، فظلت سائدة مشعة قرونا عديدة ، حاملة مشعل الحرية وفضائل الانسانية والمبادىء الاخلاقية والعلوم والمخترعات . حتى اسلمتها الى الحضارة الحديثة ، فكانت الحضارة العربية الاسلامية بحق القاعدة الاساسية للحضارة الحديثة التي ننعم بها .

٢ـ لقد ابتدأت الحضارة العربية الاسلامية كحضارة عربية، فقد وعى العرب المفهوم العلمي والاخلاقي والانساني والاجتماعي والاقتصادي للقرآن الكريم ، وباشروا بتطبيق آيات الله متخذين منها ومن سيرة الرسول (ص) واحاديثه دستورا يطبقونه ، ويعاملون الشعوب الاخرى بذلك الحدث الحضاري العظيم .

وعندما اجتاز جنود العرب حدود بلادهم ، باشروا بأول جهد حضاري وأول تعامل انساني اخوي مع الشعوب الاخرى ، متخذين من وصايا الحركات العسكرية التي اصدرها خليفة الرسول الاول ابو بكر الصديق ، الى جيش اسامة بن زيد عام ٦٣٢م قاعدة في تعاملهم مع الناس . ولا احسب ان جيشا في التاريخ قد عمل بروح انسانية منفتحة ، وبمكارم الاخلاق ، كما عمل الجيش العربي مع الشعوب الاخرى . ولم تكن تلك الوصايا خاصة بجيش واحد أو جهة معينة ، بل طبقها العرب في جميع الجهات وكافة الجيوش ، وعمل بها المسلمون باستمرار ، وكانت ولا شك مطبقة في جيش المشرق الذي قاده قتيبة بن مسلم، أو الجيش العربي في السند ، أو ذلك الذي قاده موسى بن نصير وطارق بن زياد في الاندلس ..الخ. ومن المفيد ادراج تلك الوصايا لاطلاع القاريء الكريم وهي: (أيها الناس، اوصيكم بعشر

فاحفظوها عني ، لا تخونوا ولا تغلوا وتغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله . وسوف تمرون باقوام في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان الطعام ، فاذا اكلتم شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون قوما قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا ... اندفعوا باسم الله) .

٣ـ ان النزعة الانسانية للعرب ، وجيشهم ، وحضارتهم ، موجودة في القرآن ، الذي يعتبر دستور العرب ، الذي يتلى عليهم خمس مرات يوميا مع كل صلاة . ولو فتشنا عن الآيات التي تحمل تلك النزعة الانسانية لوجدنا مثلا :

آ ـ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ـ (١٠٧ ـ الانبياء) .

ب ـ كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... (١١٠ ـ آل عمران) .

جـ ـ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم (١٤٣ـ البقرة) .

د ـ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اولئك هم المفلحون (١٠٤ـ آل عمران) .

هـ ـ وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا (٧٩ـ النساء) .

و ـ وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (٢٨ـ سبأ) .

ز ـ وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين (١٠٤ـ يوسف) .

ح ـ هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (٩ـ الصف) .

ط ـ وما هو الا ذكر للعالمين (٥٢ـ القلم) .
ي ـ لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم (٩٥ـ التين) .
ك ـ أيحسب الانسان ان يترك سدى (٣٦ ـ القيامة) .
ل ـ أوَ لم ير الانسان ان خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين (١٦ ـ النحل) .

م ـ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (١٧ ـ الاسراء).

ن ـ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا .. (٧ ـ الاعراف) .

س ـ يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم (٧ ـ الاعراف) .

٤ـ وقد احصى الدكتور ناجي معروف ١٣٨ آية قرآنية تدعو للسلم ، بينما لم يذكر القرآن سوى ست آيات تحث على الحرب منها آيتان تحثان على الحرب الدفاعية وقد ذكر بعضها في كتابه (اصالة الحضارة العربية ص ١٦٤) ومن الآيات الداعية للسلم ما يلي :
آ ـ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة(٢٠٨ـالبقرة).

ب ـ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (٦١ـ الانفال) .

جـ ـ فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٩٠ـ النساء) .

د ـ ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا (٩٤ـ النساء) .

هـ ـ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (٥٥ ـ القصص) .

و ـ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون(٨٩ـ الزخرف).

واحصى الدكتور ناجي معروف ٧٨٠ آية في القرآن الكريم تشير الى العلم وتحث عليه ومنها :

آ ـ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب (٩ ـ الزُمر) .

ب ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات (١١ ـ المجادلة) .

جـ ـ وقل رب زدني علما (١٤ ـ طـه) .

د ـ ها انتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون (٦٦ـ آل عمران).

هـ ـ خلق الانسان ، علمه البيان (٤ـ الرحمن) .

و ـ يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة (١٥١ ـ البقرة) .

ز ـ وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون (٤٣ ـ العنكبوت) .

ح ـ انما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨ ـ فاطر) •
ط ـ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٧ ـ الانبياء) •
ي ـ لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب (١٢ ـ الاسراء) •

ك ـ ومن أحاديث الرسول (ص) الصحيحة التي تحث على العلم ، وهي كثيرة ، نذكر :

اولا ـ العلماء ورثة الانبياء •

ثانيا ـ اقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد •

ثالثا ـ يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء •

رابعا ـ لا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم أو متعلم •

خامسا ـ اطلبوا العلم ولو في الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم •

سادسا ـ أول من يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء •

سابعا ـ من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طرقا الى الجنة •

٥ ـ ان سيف قتيبة بن مسلم لم يقطر دما فيما وراء النهر بل رحمة ونجدة وعلما • ولم يكن العرب مستعمرين لاحد ، أو جبارين عاثوا في الارض فسادا ، كما اراد البعض أن يصوروهم ليبرروا النزعة القومية للشعوب التي دخلت في حضيرة الاسلام ، أو ليبرروا عقائد جديدة يستحيل انتشارها بدون تشويه تاريخ العرب وأضعاف الاسلام ، أو ليبرروا حروبا عدوانية ضد العرب

والمسلمين ، كما حصل في الحروب الصليبية ، وكما يفعل الصهاينة والامبرياليون الان ، من تشويه لتاريخ العرب ، وطعن أو اهمال لدور العرب الحضاري ، بقصد تمزيق شمل العرب واغتصاب فلسطين ، وامرار الادوار الاجرامية في التآمر على الامة العربية •

ان نتاج حركات الفتيان العرب سواء فيما وراء النهر ، أو في أي مكان آخر ، كان حضارة رائعة للجميع • وقد يتعذر احصاء عدد العلماء الافذاذ من الشعوب الاخرى غير العرب ، الذين شاركوا في صنع الحضارة ، ويندر ان تجد مدينة لا بل قرية في العالم الاسلامي الا وقد برع واشتهر منها عالم ، كأبن سينا والفارابي والبخاري والترمذي والبيروني والسمرقندي والفرغاني والبلخي والسجستاني والشيرازي والاصبهاني •• الخ •

٦ ـ ولعل من الانصاف ان نشير الى ذكر اقوال العباقرة الغربيين المنصفين ، الذين قيموا حضارة العرب واعطوها حقها من الاعتبار والتقدير • وسأنقل ذلك من كتاب اصالة الحضارة العربية للدكتور ناجي معروف :

آ ـ قال لوثروب ستوارد الامريكي (ماكان العرب قط أمة تحب اراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة ، جليلة الاخلاق والسجايا) •

ب ـ وقال الكاتب الفرنسي الشهير غوستاف لوبون في كتابه الحضارة العربية (يكفي ان نذكر انه كان للعرب قبل ظهور (محمد) آداب ناضجة ، ولغة راقية ، وانهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم ، وانهم استطاعوا في أقل من

مائة سنة أن يقيموا حضارة من انضج الحضارات التي عرفها التاريخ) .

(وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة ، وان العرب اقاموا دينا من اقوى الاديان التي سادت العالم ، ولا يزال الناس يخضعون له ، وانهم انشأوا دولة تعد من اعظم الدول التي عرفها التاريخ . ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على انفسهم ، فقد كان لهم الاثر البالغ في المشرق والمغرب ، وان المشرق والمغرب مدينان لهم في تمدنهما . ولم يتفق لامة فيهما ما للعرب من النفوذ ، ورضي المصريون والهنود بمعتقدات العرب ، وعاداتهم ، وفن عمارتهم . وقدانتحل اكثر قاهري العرب دين العرب ، وفنونهم وعلومهم ، واتخذ اكثرهم العربية لغة له ، ولم يدر في خلد احدهم اقامة حضارة مقام حضارة العرب . وما على المرء الا أن ينظر الى آثار العرب الادبية ، والفنية ، ليعلم انهم زينوا الطبيعة ، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال ، والابداع ، والنضارة ، والبهاء ، وفيض الزخارف ، والذوق الرفيع .

وقد جمل العرب بخيالهم الخصب ـ وهم الذين لا نظير لهم فيالفن ـ كل شيء لمسوه .

ولقد رغبت الامة العربية بعد ان اغتنت ـ والامة العربية أمة شعراء ـ في تحقيق خيالاتها فابدعت تلك القصور المثالية الساحرة التي يخيل الى الناظر اليها انها مؤلفة من تخاريم رخامية، مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة . ولم يكن لامة مثل تلك

العجائب ولن يكون ، فهي وليدة جيل فتي مضى ، وخيال خصب ذوى ، ولا يطمعن احد في قيام مثلها في الزمن الحاضر الذي نشأ ابناؤه على عبادة المادة) .

ويقول لوبون أيضا (وقد رأينا العـــرب ذوي أثر بالغ في تمدين الامم التي خضعت لهم ، وقد تحول بسرعة كل بلد خفقت فوقه راية الرسول ، فازدهرت فيه العلوم ، والفنون والآداب ، والصناعة ، والزراعة ايما ازدهار) .

ويقول عن الآثار العربية الفنية العجيبة (هي خارقة للعادة في بعض الاحيان ، فتانة في الغالب ، اصيلة على الدوام) .

وكان لوبون يرى (بانه لو لم يوجد العرب على مسرح العلم والفكر لما كانت اوربا بهذه النهضة التي تكونت بنواة أصلها عربي وجذرها عربي) .

وقال غوستاف لوبون في كتابه الآخر «الانسان والمجتمعات» (ان الحضارة العربية تسيطر بالحقيقة منذ اثني عشر قرنا عـــلى الاقطار الممتدة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي ، ومـــن شواطي البحر الابيض المتوسط الى رمال افريقيا الداخلية . وقد كان سكان هذه البلاد المترامية الاطراف تابعين لدولة واحــدة ، وهم يدينون الآن بديانة واحدة ، ولهم لغة واحدة ونظم واحــدة وفنون واحدة) .

ويقول أيضا في كتابه « حضارة العرب » (انه كان للعرب خصال عظيمة ، وقابليات ذهنية عالية ... وهم أفضل من الرومان بسعة معارفهم العلمية والفنية ، ويمكن القول ان للعـــرب مقاما

رفيعا في التاريخ ، فقد ظهر من العرب رجال عظماء كما تشـــهد بذلك اكتشافاتهم . واذا ما قابلنا بين العرب والامم الاوربية .. أمكننا ان نقول انهم ارقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة اخلاقا وثقافة . وان جامعات القرون الوسطى لـــم تعرف في قرون كثيرة مصدرا غير مؤلفاتهم ، ومناهجهـــم . وان اخلاقهم كانت افضل من اخلاق اجدادنا بسراحل .. كما يمكننـــا القول ، ان اعاظم العرب في القرون الوسطى الماضيـــة مساوية لطبقتنا الوسطى المتمـــدنة الحاضرة ان لـــم تكن ارقى منهـــا في الغالب) .

وقال أيضا (كلما امعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم ، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واســعة ، وسرعان ما رأينا ان العرب أصحاب الفضل في معرفـة القـرون الوسطى لعلوم الاقدمين ، وان جامعات الغرب لم تعرف لها مـدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم . وانهـــم هم الـذين مدنوا اوربا مادة وعقلا واخلاقا . والغرب وليد الشرق. ولايزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق ، فعلى العلماء ان يبحثوا عـــن هذا المفتاح فيه ....) .

وقال أيضا (وفي تاريخ العرب مسائل كثيرة تتطلب حـلا . وفيه دروس وعبر جديرة بالحفظ . والعرب هم عنوان أمم الشرق التي تختلف عن أمم الغرب التي لا تزال جاهـلة لشـــأنهم . ان الآثار الباقية من حضارة العـــرب كثيرة ، وهي تكفي لايضـاح اقسامها الجوهرية بسهولة . وقد استعنا في ذلك باكثرها أي بما

خلفه العرب من العلوم والآداب والفنون والصناعات والنظم والمعتقدات. وقد انشأ خلفاء محمد(ص) تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسية وافريقية واوربا . وابدع العرب في العصر العباسي حضارة اينعت الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة . واصبحت اسبانيا في عهد الامويين انضر مقر للحضارة العربية . وكان يقصد جامعات العرب في طليطلة وغرناطة وقرطبة طالبوا العلم من جميع أمم الارض على اختلا فمللهم ونحلهم . وقد كانت بغداد في الشرق وقرطبة في اسبانيا ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام ، من مراكز الحضارة التي اضاءت العالم بنورها الوهاج ، أيام كانت اوربا غارقة في دياجير الهمجية) .

وقال (واذا كان علماء الوقت الحاضر ينكرون تأثير العرب ، واذا كانت اوربا تشعر بمذلة الخضوع لافضلية حضارتهم ، ونفوذهم . واذا اضفنا الى اوهامنا الفاسدة الموروثة في المسلمين، الزعم الباطل الآني ، الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة ، وهو ان اليونان ، واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي ، ادركنا السر في جحودنا العام لفضل العرب العظيم في تمدين اوربا) .

(ويتراآى لبعض الفضلاء ان من العار ان تكون اوربا مدينة في خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين. ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق) . ويصل غوستاف لوبون الى الخلاصة فيقول (والخلاصة انه كان للحضارة الاسلامية

تأثير عظيم في العالم ، وان هذه الحضارة مدينة للعرب وحدهم في هذا التأثير .

وان الشعوب التي اعتنقت دين الاسلام لا تشاركهم فيه . وان العرب مدنوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، وفتحوا لاوربا باب المعارف العلمية والادبية والفلسفية التي كانت تجهلها ، ومدنونا وظلوا اساتذة لنا مدة ستة قرون) .

وقال العالم الهولندي الشهير دوزي (انالعرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط بل بالفطرة ، والغريزة ، حتى حققوا باديء ذي بدء مباديء الثورة الفرنسية الشريفة وهي الحرية والمساواة والاخاء . لقد كان البدوي يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الارض . ان هذهالمباديء عند العرب هيافضل مما عندالاوربيين. وربما كانت اخلاق العرب اسمى من اخلاقنا ، ونفوسهم اكبر من نفوسنا ، وهم أكثر ميلا الى العظمة الانسانية) .

وقال الدكتور دي لاسي اوليري (ان المادة العلميةالاغريقية التي تسلمها العرب لم يسلموها كما هي الى غيرهم ممن جاء بعدهم ، فقد كان لها حياة ونمو حقيقيان في البيئة العربية ، ويمكن ان يقال ان الجبر والمثلثات يعتبران تطورا عربيا بهذه الدراسات . وكان العرب اذكياء في ملاحظة الافلاك وتسجيل الملاحظات عليها . وان العرب استطاعوا ان يصححوا معلومات الاغريق القدماء . ولم يعترف كثير من علماء المسلمينبالتنجيم ولم يروا علاقة بين النجوم وبين ما يحدث للناس في الارض ، وبذلك خالفوا اليهود والمسيحيين . أما في الطب فان أطباء العرب كانوا

دقيقي الملاحظة وقد اضافوا من خبراتهم في المستشفيات الشيء الكثير الى ما تعلموه من الاغريق . كما اخترعوا كثيرا من الآلات التي تستعمل في الجراحة . وظل العرب قرونا عديدة في المقدمة في اعمالهم الطبية ، كما ساهموا بتطوير العلوم تطويرا حقيقيا ، مكنهم ان يعطوا للاجيال المتعاقبة اكثر مما تسلموه ممن سبقهم).

وقال ارثر نيونارد في كتابه (ايقاظ الغرب) ما خلاصته (ان المدنية الاسلامية عند العرب وصلت الى اعلى مستوى من عظمة العمران والعلم ، فاحيت جذوة المجتمع الاوربي ، وحفظته من الانحطاط) وقوله (لم نعترف ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية بانه لولا التهذيب الاسلامي ، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل العمران وحسن نظام مدارسهم ، لكانت اوربا اليوم غارقة في ظلمات الجهل) .

ويقول كوتيه الفرنسي (ان محصول المدنية العربية في العلم على اختلاف انواعه تفوق محصول المدنية اليونانية كثيرا . أما في بلاد الشرق فقد كان تأثير العرب كبيرا في الفرس وغيرهم ، فقد تثقف هؤلاء كما اسلفنا بالثقافة العربية واعتنق اكثرهم الاسلام ، وتعلموا العربية وكتبوا بخطها العربي ، وغير الفرس اساليب نظمهم وشعرهم واقتبسوا الاوزان العربية . وقضى علم العروض العربي على الاساليب الفارسية القديمة . واصبح للعربية مكانة محترمة في أدب الفرس حتى اليوم) .

وقال أوجين يونغ في كتابه «يقظة الاسلام والعرب» (لقد كان للعرب ماض يحق لهم ان يعجبوا به ، ماض حربي ، ثم ماض في

العلم العالمي والصنائع والرفاهية ، مما اتخذته اوربا في القرون الوسطى أيام كانت نصف متوحشة ، دعامة لقيام النهضة الحديثة. ولعله يقال ان الاوربيين لا يقدرون ان يغفروا لاساتذتنا مالقنوهم من معارف) ويقول (ليت شعري هل القوة الاجتماعية في الاسلام هي التي تقلق اوربا أو دولها العظمى ؟. ربما كان ذلك لان تعاليم الاسلام حرة ، فهو لا يقول بالطبقات ولا بالامتيازات . ولايدعو الى التسلط ... وليس في مطاويه شيء من الرياء السياسي الذي تنقاد اليه بعض الحكومات .

ان شعار المسلمين الجميل هو تقريب القلوب والارواح . وهذه خطوة انتقال الى السلام العام . وهذا ما يراد ، ولا شك ، القضاء عليه ، وما مصير من يعمل ذلك الا الخيبة) .

وعن العدل الذي هو هدف المدنية والحضارة ، وغاية ما تهدف ان تصل اليه المجتمعات الراقية ، يمكن أن نذكر آلاف الامثلة على عدالة العرب ورقي المجتمع العربي الاسلامي ، وذلك ما ينفي التهم بان العرب قد تسلطوا على الامم الاخرى ، وفتحوا بالسيف دون العدالة والاخلاق والتسامح . فهذا هو المأمون ابن هارون الرشيد ، واحد من الخلفاء العباسيين ، ولم يكن اعدل الخلفاء ، ولا يمكن أن يوازي الخلفاء العادلين الراشدين وغيرهم كعبدالملك بن مروان وعمر بن عبدالعزيز ، نراه يحاكم ابنه وينتصف لامرأة منه ، لانه أخذ مزرعتها . لقد قالت المرأة العربية للمأمون وقد جلس يوما للمظالم :

ياخير منتصف يهدى به الرشد ويا اماما به قد اشـرق البلد
تشكو اليـك عميد القوم ارملة عدا عليها فلم يترك لهـا سبد
وابتز مني ضياعي بعـد منعتها ظلما وفرّق مني الاهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم قال :

في دون ما قلت زال الصبر والجـلد
عنـي واقـرح مني القلب والكبـد
هـذا آذان صـلاة العصر فانصـرفي
واحضري الخصم في اليـوم الذي أعد
والمجلس السبت ان يقض الجلوس لنا
تنصفـك منـه والا المجلس الاحـد

ولما كان يوم الاحد ، جلس المأمون فكان أول من تقدم اليه تلك المرأة فقالت(السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فقال (وعليك السلام . اين الخصم ؟) فقالت (الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين) وأومأت الى العباس ابنه فقال المأمون يا أحمد ابن أبي خالد ، خذ بيده فأجلسه معهـا مجلس الخصوم) ولما صارت تتكلم بكلام يعلو كلام العباس قال لها احمد بن ابـي خالد (يا أمة الله انك بين ايدي أميرالمؤمنين ، وانك تكلمين الامير فاخفضي من صوتك) فقال المأمون (دعها يا احمد فان الحـق انطقها وأخرسه) ثم قضى برد مزرعتها اليهـا وعاقب ابنه العباس .

الخاتمة

١ ـ كانت بلاد ما وراء النهر (جيحون) المسمى حاليا (اموداريا) في الاتحاد السوفيتي مقسمة سياسيا الى عدة دول هي: فرغانة واشروسنه والصغد وبخارى وخوارزم والصاغنيان وأخرون وشومان ، عدا بعض الدويلات والامارات الصغيرة . وتسمى جميع هذه البلدان الآن بآسيا الوسطى وهي تضم الجمهوريات السوفيتية الاسلامية طاجكستان وازبكستان وتركمينيا وقرغيزيا وكازاغستان .

٢ ـ والطبيعة الجغرافية لتلك البلاد تختلف تماما عن طبيعة البلاد العربية ، في وعورة الارض ، حيث ترتفع فيها الجبال الوعرة العالية ، وتقل في مناطقها الجبلية الممرات ، الامر الذي يحدد الحركات العسكرية ، ويزيد من صعوبات التقدم ويسهل الدفاع ، وتزداد وعورة الارض في المناطق الشرقية عند الحدود الصينية ـ السوفيتية الحالية ، حيث تشكل جبال تيان شان المتفرعة من هضبة بامير وجبال هندكوش المتصلة بهضبة بامير والممتدة في شمال افغانستان حاليا ، امنع العوارض الارضية في الكرة الارضية بعد جبال الهملايا في شمال الهند .

كما ان الطبيعة من حيث المناخ ، تختلف اختلافا كليا عن مناخ البلاد العربية ، خصوصا في فصل الشتاء ، حيث تغطي الثلوج

معظم أراضي تلك البلاد ، وتهبط درجات الحرارة الى ٢٠ درجة تحت الصفر ، الامر الذي حدد الحركات العسكرية في فصل الشتاء ، واجبر الجيش العربي على اتباع اسلوب الانسحاب الى القاعدة الأمينة في مرو غرب نهر جيحون ، للاستراحة شتاء واعادة الكرة في فصل الربيع • وهذا ما سبب اطالة مدة الحركات العسكرية أولا ، وفسح لجيوش دول ما وراء النهر بفترة استراحة واستعداد طيلة فصل الشتاء ، لصد الهجمة العربية القادمة في الربيع •

٣ ـ أ ـ لقد كانت حركات الجيش العربي قبل قتيبة بن مسلم تتسم بطابع الغزو والمعارك المحلية ، دونما خطة واضحة واسعة ومدروسة لفتح بلاد ما وراء النهر ، وضمها الى حضيرة الخلافة الاسلامية ، ونشر تعاليم الاسلام • ومنذ تعيين قتيبة بن مسلم واليا لخراسان وقائدا لجيش المشرق ، بدأت صفحة حاسمة في سير الحركات العسكرية ، وصفحة مجيدة ناصعة ولامعة في تاريخ العرب العسكري وانتصاراتهم المجيدة •

ب ـ فقد عمل قتيبة على دراسة الموقف عسكريا واداريا ، وقرر السيطرة بشكل حاسم على كل المناطق الكائنة الى الجنوب من نهر جيحون ، وهي مناطق شمال افغانستان حاليا ، وتأسيس قاعدة حركات امينة في مرو ، كما قرر الاستفادة من اختلاف دول ما وراء النهر فيما بينها لاخضاع الواحدة بعد الاخرى ، لذلك نراه قد استعمل دهاءه السياسي وحنكته ودرايته في مزج العمل السياسي والاداري بالعمل العسكري •

فهو يقبل بالصلح ليتجنب المعركة أحيانا • ويبقي حكام الولايات على مناصبهم لكي يكسب تأييدهم في المعارك المقبلة ، ويرغبهم بالاسلام ويعمل جهد طاقته لنشر تعاليم الاسلام ، بقصد ضمهم الى جانبه ، وتشكيل وحدات عسكرية جديدة منهم ، علاوة على الفائدة الكبرى في استتباب الامن والنظام ، والتزود من الموارد المحلية المتاحة في المعارك المقبلة •

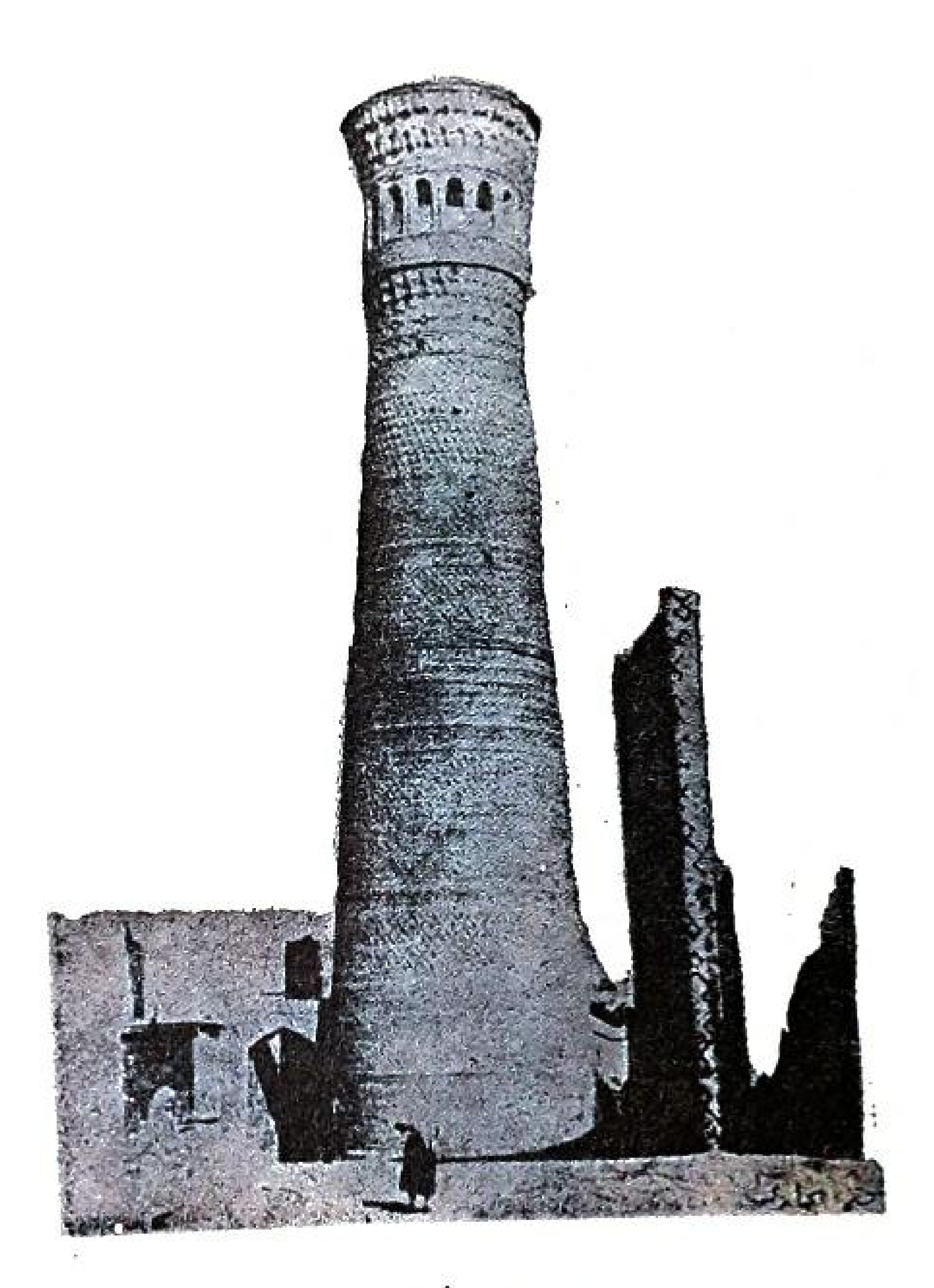
ج ـ كما بدأ بفتح المناطق السهلة المتاخمة لجيحون ، صار ينتشر شرقا بدفعات وبخطط اتسمت بالأناة والتروي ، وتجنب المغامرات التي قد تدمر جيشه ، سيما اذا عرفنا ان التفوق العددي لم يكن بجانبه اطلاقا • وذلك ما جعله في صراعه مع الديانة المجوسية وحضارتها يحمل لواء النصر باستمرار ، حتى قضى على آخر بصيص لتلك الديانة وتقاليدها ، في بلاد كانت منبع الحضارة الفارسية ، ومنها انحدرت الى ايران الكائنة جنوبها •

د ـ كما ان اسلوبه في ادارة المعارك وادارة البلاد ، وبعد نظره واصالة رأيه وابداعه ، وشجاعته واقدامه ودهاءه السياسي ، وسعة حيلته وقابليته البدنية ودرايته العسكرية ، هذه الصفات التي تميز بها قتيبة ، وتميزت بها قيادته الحكيمة لجيش المشرق ، هي التي سهلت له التقدم والفتوح ، ليس في بلاد ما وراء النهر فقط ، وانما تجاوزها الى داخل الصين ، حيث فتح مدن كاشغر وختن وترفان • ويقال انه وصل الى ولاية قانسو الكائنة الى الغرب من بكين عاصمة الصين حاليا فتأمل !!•••

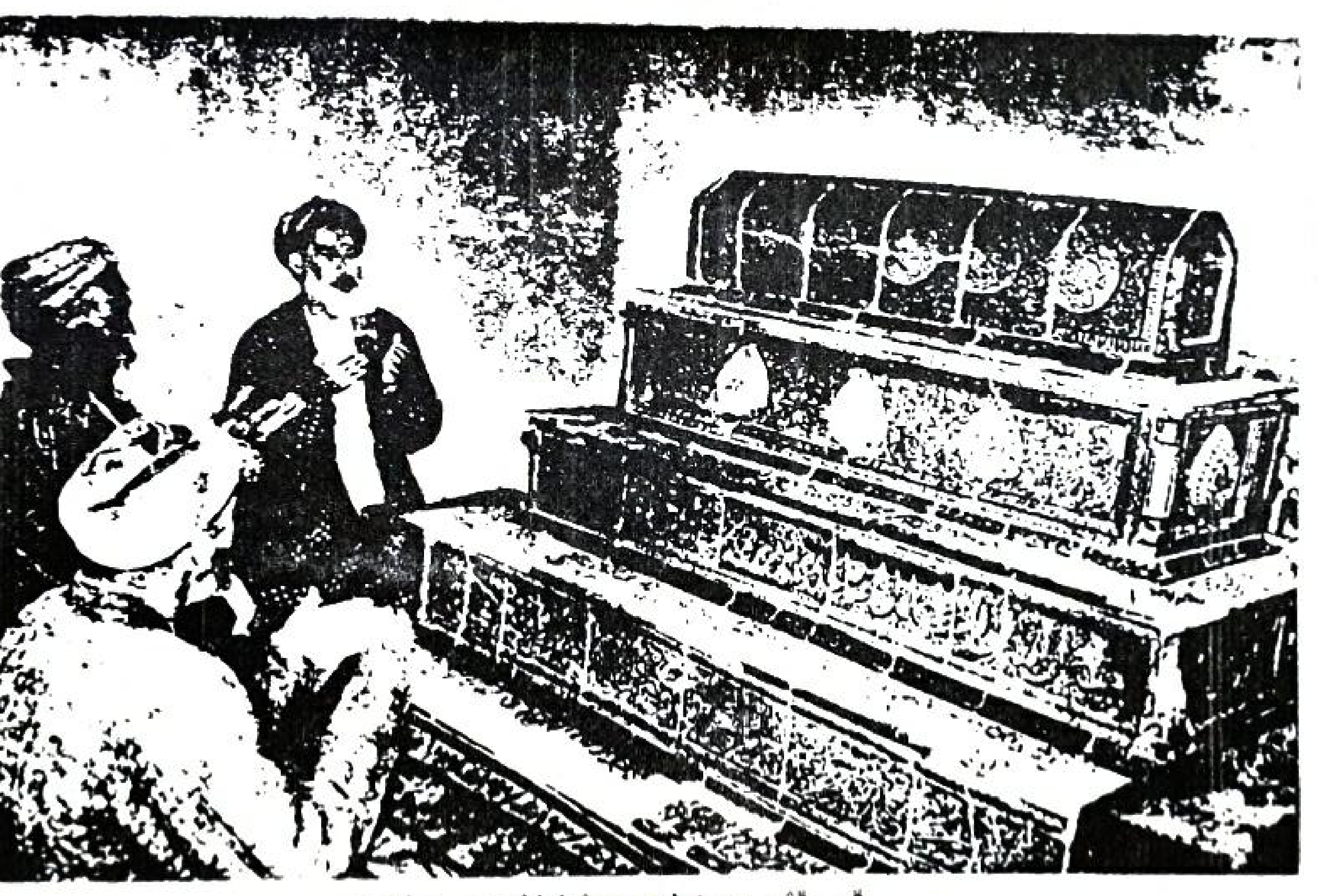
٤ ـ ان معارك قتيبة بن مسلم سواء في الاستعداد العسكري قبل التقدم وعبور جيحون وترتيباته الادارية ، أو في معركة (بيكند) أو (بخارى) أو (سمرقند) ، والتقدم على الشاش ـ طاشقند ـ اوخوقند (لينين آباد) وفرغانة ، أو التقدم على كاشغر داخل الصين ، قد انتجت دروسا مستنبطة غاية في الاهمية ليس لمنتسبي الجيوش العربية فحسب ، بل لكل عربي ينتمي لهذه الامة العربية المجيدة ذات الرسالة الخالدة ، هذه الامة التي انجبت قادة مثل قتيبة بن مسلم وجنودا مثل جنوده ، وحققت انتصارات باهرة ، ونشرت لواء العدل والمساواة ، ووطدت النظام ، وعم الرخاء والاخاء شعوبا كانت متناحرة مفرقة ، يسودها البؤس والقهر والطغيان ، لتغني الانسانية بأروع حضارة عربية اسلامية ، كانت هي القاعدة الاساسية والمفاعل الذي انتج المدنية الحديثة ، وانه لمن أهم الدروس والعبر ان ندرك ان الوحدة تجسد ارادة الامة في تجاوز الصعاب ورفض المستحيل ، بينما لا نجد في التفرق والاقليمية غير الهزائم والمسار الخطر نحو نهاية مشينة ، وحال العرب الآن في تفرقهم الى دول عديدة ، شبيه تماما بما كان عليه عرب الاندلس من تفرق الى دويلات ، فسهل طردهم منها والقضاء على وجودهم .

ويدرك القارىء الكريم بسهولة ، ان الوحدة العربية تجعل من السهل اعادة تمثيل ذلك الدور الرائع الذي لعبه قتيبة وجيشه ، فلم يكن ذلك سوى جيش عزوم مدرب وبامرة قائد محنك لامة موحدة .

كما يسهل على القاري الكريم مقارنة وضع الصهاينة في فلسطين الآن ، تجاه دول عديدة مفرقة ، وجيوش مفرقة ، ووضعهم لو كانوا يواجهون امة موحدة في دولة واحدة لها جيش موحد كجيش قتيبة بن مسلم .



مسجد بخاری



قبر قثم بن عباس (شاهزنده) بخاری

المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذري

٣ ـ الفتوحات الاسلامية ـ ابن زيني دحلان

٤ ـ تاريخ بخارى ـ ارمانوس فامبرى

٥ ـ تاريخ بخارى ـ لابي بكر محمد بن جعفر النخشري

٦ ـ مختصر التاريخ ـ للشيخ ظهيرالدين علي بن محمد البغدادي

٧ ـ الفتح العربي للعراق وفارس ـ محمد فرج

٨ ـ من ذي قار للقادسية ـ صالح مهدي عماش

٩ ـ الجندية في الدولة العباسية ـ نعمان ثابت

١٠ـ افغانستان بين الامس واليوم ـ أبو العينين فهمي محمد

١١ـ أصالة الحضارة العربية ـ ناجي معروف

١٢ـ قول على قول ـ حسن سعيد الكرمي

١٣ـ المطالعة العربية ـ الجزء الثاني ـ عزالدين آل ياسين ورفاقه

١٤ـ الاطلس الفنلندي

١٥ـ خرائط الاتحاد السوفيتي الادارية

١٦ـ خريطة اكاديمية العلوم السوفيتية (شعوب وحكومات مناطق الاتحاد السوفيتي في القرنين التاسع والعاشر)

١٧ـ الفتوح ـ لابي محمد أحمد بن أعثم الكوفي ج٧ ـ حيدر آباد ١٩٧٤ •

فهرست الخرائط والمخططات

المحتوى

الفصل الرابع

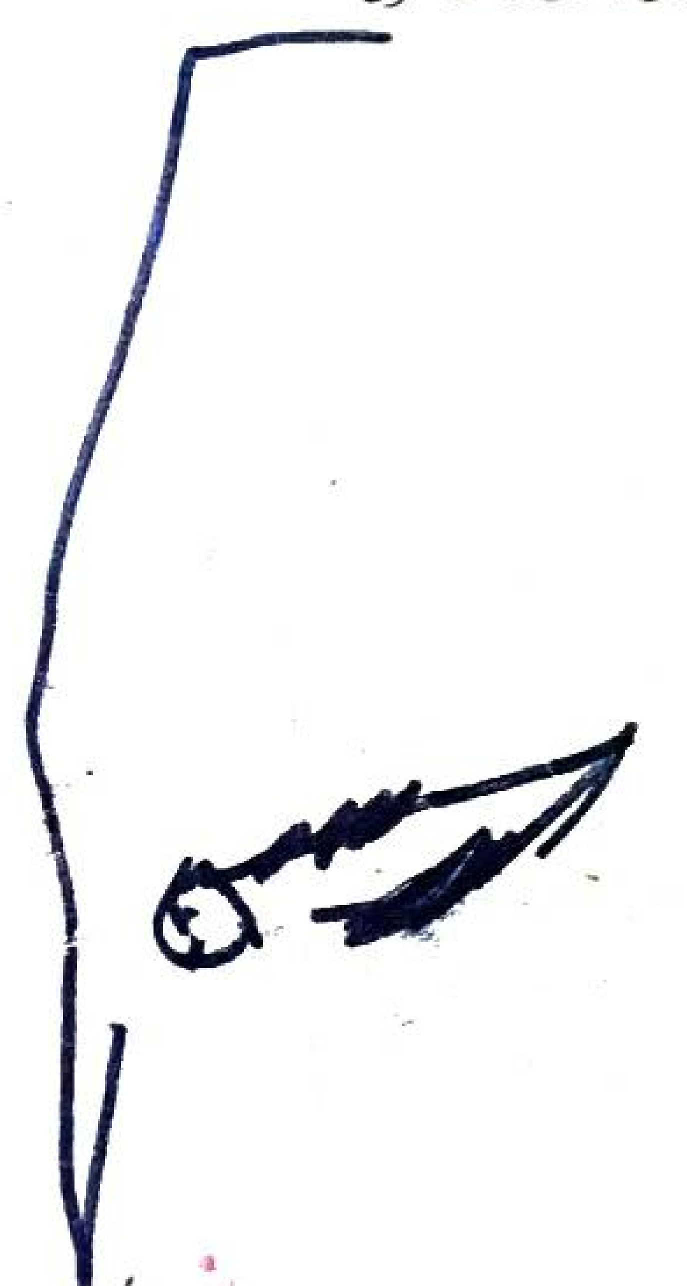
الفصل السادس

رسم وخط الخـرائط : خالد الخالدي
تصميم الغلاف والداخل : راجحة القلسي

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٢٦ لسنة ٩٧٨

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون



الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

دار الحرية للطباعة

السعر ٢٥٠ فلساً